

بوجدرة

رواية



الحلزون العنيد

منشورات ANEP

رشيد بوجدرة

الحلزون العنيد

رواية

ترجمة: هشام القروي

ANEP

الحلزون العنيد

الكتاب: الحلزون العنيد (رواية)
المؤلف: رشيد بوجدرة
المترجم: هشام القروي
الغلاف: بديعة ميدات
الناشر: المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والاشهار (ANEP)
28 طريق أحمد واكد، دالي ابراهيم، الجزائر
الهاتف: 53/ 52 38 37 21 213
الفاكس: 53/ 20 72 36 21 213
e-mail: dcpa@anep.com.dz

الطبعة الأولى 1984
الطبعة الثانية 2002
ISBN: 9961-756-03-7
Dépôt - légal: 819-2002

منشورات ANEP
إقامة النجاح ـ 11، شارع الأخوة بوعدو
بئرمراد رائس ـ الجزائر
الهاتف: 58 95 44 21 213
الفاكس: 65 95 44 21 213

اليوم الأول

وصلت اليوم إلى مكتبي متأخراً. أنا لا أحب الأيام الممطرة. الأطفال فيها يهيجون، وحركة المرور تغدو لا منفذ منها؛ عندئذ، يشرع هو في التظاهر بجدية. أنا لا أحفل به كثيراً، لكن فكرة ملاقاته لدى خروجي من البيت تجعلني عصبياً. ومهما بكّرت في الذهاب إلى الشغل، فأنا أبداً لا أصل في الوقت المحدد. سائق الباص يتعمد الثرثرة مع الركاب. إنه دائماً السائق نفسه. فأنا دقيق في تأخري. إذا ما فاتني ـ وهو ما يحدث غالباً ـ باص الثامنة والنصف، فإن ذاك الذي يمر في الثامنة وخمس وأربعين لا يمكن أن يفوتني أبداً. مع قليل من الحظ قد أصل في الوقت. غير أن سائق الباص رقم 21 لا يبدو قلقاً للتوقيت. فالدقة ليست همه الشاغل. هو يشكو من غلاء المعيشة وأنا بفضله علمت أن اللحم صار صعب المنال. فعزمت على الاستغناء عنه. وهو يهدد بتقديم شكوى إلى مكتب مراقبة الأسعار. يا للأبله! يضيع وقته ووقتي معه. إذن، وصلت متأخراً. كانت الساعة التاسعة وسبع دقائق.

قيدت ذلك على قصاصة صغيرة من الورق. سوف أشتغل سبع دقائق إضافية اليوم. ينبغي ألّا أنسى. عندما دخلت، نظر الموظفون إلى ساعة الحائط. بل وابتسمت السكرتيرة. سجلت ذلك أيضاً على قصاصة ورق أخرى. وضعتها في جيب سترتي الأيسر. كنت قد وضعت ورقة تأخري في الجيب الأيمن. هكذا لا أنسى شيئاً. إذ أنني أسجّل كل شيء. ولتواصل هي ابتساماتها. ألست الرئيس؟ كانت أمي تقول: الجمل ما يرى حدبته(*). والسكرتيرة أيضاً. هي غير حدباء. لكن لا فرق. طبعاً، لا أحد تجرأ على ابداء ملاحظة. انهم يعرفون عقوباتي الصارمة. لم أتحقق من الوقت الذي شاهدته فيه. لا جدوى من ذلك. فهو مثال للدقة. ولكن حسب الطقس. إن يكن جافاً أو ممطراً. التغير يطرأ على ساعة بالضبط. أنا لم أشتر ساعة دقيقة التوقيت هباء. ذاك مال أحسنت استثماره. فالمسألة متعلقة بحياتي. وحياتي لها قيمتها. لو كان لكل الناس دقتي، لما كانت المدينة على هذه الحال من القذارة. ولذلك فحياتي نفيسة. أنفس من حياة سائق الباص. فضلاً عن أنه سيموت قريباً. سوف يقتله التضخم. أنا أعي ما أقول. إنه ما يسمى بالتضخم المستورد. إنني أقرأ

(*) الجمل ما يرى حدبته. مثل من الأمثال السائدة العديدة التي يستعملها بوجدرة في هذا الكتاب. والرائجة في المغرب العربي. فضلنا الابقاء على نطقها حسب اللهجة المحلية. حتى لا تفقد من حرارتها.

الصحف. أقص منها أهم المقالات. ستكون سنة قاسية على البلدان المتخلفة. لكني أعرف كيف تكون المواجهة. لا جدوى من الشكوى. أشك في أن ذلك الرجل يقوم بدعوة للتخريب. مع كل الساخطين الذين ينقلهم ليس أمامه سوى معضلة الاختيار. جمهوره فاتح آذانه له. هناك دائماً من ينتهي بمناولته سيجارة. الشيء الذي لا يمنعه من مواصلة الشكوى. والتدخين. في حين أن ذلك ممنوع منعاً باتاً. لدى انقضاء نهاره، يكون قد دخن علبة بالمجان. وصلت مكتبي متأخراً. بالرغم من أن لا ناقة لي ولا جمل في التضخم المستورد. همي الأكبر نظافة المدينة. غير أني أواكب الأحداث. اثنان أو ثلاثة مراكز اهتمام. لا أكثر. وإلا، فالتشتت. وإهدار الوقت.

أما الجرذان. فهي لا تضيع وقتها. إنها خمسة ملايين. تستهلك وتتناسل. يا للرقم! سكرتيرتي لا تصدقني. تعتقد أنني أخرف. السلطات نفسها لا تود السماع به اطلاقاً. خمسة ملايين. إنه لرقم ذو تأثير في نضال طويل الأمد. لكنه شديد الوطأة على القلوب الحساسة. بل لقد تلقيت توبيخاً لمجرد اقتراحي القيام بحملة وطنية تحت هذا الشعار: خمسة ملايين جرذ في العاصمة! كانت البلدية تتوجس وقوع حركة هلع يصحبها نزوح يشل دواليب أكبر مدائن البلد. لم أقل شيئاً. الطاعة العمياء من خصال الموظف الجوهرية. وأنا لا أزعم سوى ذلك. يجب تخويف الناس. غيرة الجماهير على الوطن خيالية. قائز.

وشعار. لا شيء يصمد أمام مثل هذا التبسيط. الوصاية! الجرذان نفسها لا تفلت منها. أنا لست عالماً في السياسة (عدم نسيان تدوين هذه الملحوظة على وريقة!) لكنني أقرأ في بيتي. لدي الوقت. لا تشتت. لا انحراف. معرفة تركيز الجهود على غاية محددة. وبذل كل ما بالإمكان بذله لتحقيقها. وهو ماأفعل. حياتي تستهدف شيئاً واحداً. إبادة جرذان هذه المدينة الجميلة التي يمكنها أن تكون أنظف. لكن جمع القمامة ليس مشكلتي. ولا مشكلتي قتل الذباب والبعوض والبق والنمل وغيرها... وحده جنس الجرذان يهمني. إنني أعرفه. كل المعلومات الخاصة به مدونة على بطاقات أحتفظ بأرشيفها في بيتي بعناية قصوى. إنه كد سنوات. موظفو مصلحتي لا يشتغلون فيها إلا لكونهم لم يجدوا عملاً آخر بسبب صعوبات الانتداب في الإدارة. لدى الشباب أفكار جاهزة. والأفضل ألا نتحدث عن النساء! هن لا يبقين. إذ يصيبهن يرقان. وفي غضون أسابيع قليلة يذهبن للشغل في مكان آخر. أو يتزوجن. انهن يرغبن في الزواج. ولو لمرة واحدة. لم هذه الفكرة الثابتة. التناسل! إنه الشيء الوحيد الذي يشغل بالهن حقاً. مثل الجرذان والفئران. أنا أعيش وحيداً. وهو ما يبدو طرافة في مدينة تقوى فيها غريزة التجمع. وتتركز العائلة بتماسك. لكن الجرذان ـ عملياً ـ أسرع. وهو ما يجهله الناس. جرذان اثنان لكل مواطن. مجلس البلدية لا يصدقني. سبق وحاولوا احراق أرشيفي. لكنني أملك نسخة

ثانية منه مخبأة عند أختي في الريف. هي تعتقده سجلات شرطة. وتتظاهر بالتواطؤ معي. وهي في الواقع تريد أن تزوجني. لكنني متصامم عن ذلك منذ عشرين سنة. سوف تنتهي بالاستسلام. ثم تطلب مني أن أحمل أرشيفي. إني لا أنقطع عن اثرائه. كل ما يتعلق بالجرذان مسجل فيه بدقة. تساعدني قصاصات الورق الصغيرة بفعالية. وهي دائمة الكثرة بافراط. مساء، في البيت، أبيضها. أنسخ محتوياتها على بطاقات مضاعفة. أجهد للمستقبل.

وصلت اليوم متأخراً إذن. على زجاج النوافذ، تتمطى، متقاطعة، قطرات خضراء مزرقة، تحدد كامل صفحته التي تتشابك فوقها انعكاسات ظلال أشجار كبيرة تزين الفناء. يوم عمل لا يشبه غيره. وأجدني مركزاً انتباهي على رمدة البخار. أطلس يخضره الانعكاس مثل رغوة كثيفة ملبسة على الصلصال. أفضل هذه الصورة المتاهية. يرعبني الحنين. لكن أمي تشوقني. أنا لها مدين بكل شيء. بالنظام. بالدقة. بكره الأيام الممطرة، ووظيفة الرجل التناسلية، والمرايا. أؤثر التفكير بهذه الأشياء على التفكير بلقاء هذا الصباح. كانت قد قررت: ولد وبنت. وفي ظرف ثلاث سنوات من الزواج كان لها ما أرادت، آنذاك. توجب عليها الابتعاد والابقاء على المسافة. كان الوالد يسعل. وكانت تكرر له أن القناعة هي العلاج الوحيد. كانت صارمة. وغدت هزأة أسرتها وجيرانها. لكنها صمدت. ورثت عنها نفورها. وتخصصت في تناسل

الجرذان. لا أريد التفكير بما شاهدت هذا الصباح. كان هنالك. لابداً بأبهة في عشب الحديقة المحفوف. متقاطع القرنين في وضع هجومي. تظاهرت بعدم رؤيته. عدوت إلى الموقف. كان الباص الذي يقلني عادة قد انطلق. إنهم يزدرون بي. وعني يتهامس تلاميذ المدارس بكلام بذيء. بل إنني سمعت شتيمة. سجلتها على الفور طبعاً. إذ إنني لا أريد اتهامهم بلفظ شتيمة أخرى متذرعاً بالتشابه الموجود بينها. وهو عائد إلى أن لها جميعاً نفس الجذر الصوتي المتمحور أساساً حول الحرف «ز». حتى لا أسقط في هذا التيه إذا دونت ما سمعت. وقد ذعر اللئام لما شاهدوني أخرج من جيبي قصاصة ورق. 2,20/سم. وأخربش فوقها. أطلقوا سيقانهم للريح. هم يعتقدون أنني أرميهم بأذى سحري. لكوني أعزب عريقاً. أمهاتهم يحرضنهم على استفزازي. ويتهمنني باضمار إبادة الجنس البشري. أنا في الواقع لا أعادي سوى الجرذان. إلى أن يأتي ما يخالف ذلك. إن قتلها هو مهنتي. صحيح أنني لا أحب الأطفال. لكنها حكاية أخرى. مختلفة تماماً. كان أبي يسعل. لقد كنت أسمعه يسعل على الدوام. قالت أمي له: إذا كنت تريد أولاداً آخرين. فستموت بداء رئتيك. لم يلح كثيراً. كانت تعرف كيف تحسم الأمور. ولد. ثم بنت. وكان لها ما أرادت. المطر ينهمر دائماً. الحنين للنساء والمسلولين. كانت تقول. وكانت محقة. أنا إذن. أبغض الحنين والمرايا

والمطر. لكني أحب البخار والقطرات المائية على الزجاج. إنها ترسم متاهات ملتوية شبيهة بمسار الجرذان كما وصفه أبو عثمان عمرو بن بحر (166 ـ 252هـ) في كتاب الحيوان. ذلك أن الجرذ لا يجري. بل يحرجل. إذ أنه يجهل الخط المستقيم. فيلتوي. ولولا هذا، لما كانت قطرات المطر التي تنزلق مظللة رمدة الزجاج المعشبة لتجتذب اهتمامي. ما أن يتعلق أمر ما بالجرذ حتى أجدني منبهراً ومركزاً كامل انتباهي. تسجيل هذا التماثل بين مسيرة الجرذان الخاصة وبين تعرجات حبيبات المطر فوق سطح أملس. لا تزال تمطر. علي باسترداد الدقائق السبع. ها أن جرس التليفون يشرع في الرنين. الصيف أسوأ. طرطقة الآلة الكاتبة الماكرة. خطوات أوائل المستغيثين المتسارعة. سائق الباص. إلخ. إنه ليوم مليء بالمشاغل حقاً.

بطاقة رقم 2012: «من أهم الخصائص التي تميز جرذ المتاعب فضوله. وحفظه ـ عن ظهر قلب ـ جميع المسالك الممكنة والمتصورة في أرض معينة. ومنها على سبيل المثال مسلك الهرب الذي قد يؤديه إلى جحره. إننا لنجد عند هذا النوع ـ وبصفة مثالية ـ تلك القدرة على استعمال مسالك فرعية. لم يسبق له أن صواها على الخصوص. فالجرذ ـ إذ يجد نفسه وسط أروقة متاهة ـ يقوم لأول وهلة بنوع من التقويم الطوبولوجي الشامل. ثم يسقط من حسابه كل المسالك التي لا تفضي. ونحن إذا غيرنا قليلاً في

الشروط الأولية، بتبديل أمكنة الطعام مثلاً، نلاحظ أن الحيوان لا ينسى أبداً ما اختزنته ذاكرته. فهو يجد على الفور ما كان يحدسه باطنياً، كما لو أنه تعلمه بوضوح. لقد جردت كل شيء. إذ لا بد للمرء من معرفة عدوه. هذا مبدأ تافه من مبادىء الاستراتيجية والتكتيك. وإلا، فالتقوقع، للجرذان طريقتها الخاصة في الإحاطة بالأشياء. فالمتاهة هي تطويق مطرد. إنها تعود بنا إلى رمزية بالغة الثراء. وقصتها هامة وممتعة جداً. أفرد لها سيلاس هاسلام ـ وهو مهندس من القرن التاسع عشر ـ كتاباً ضخماً بعنوان: تاريخ المتاهات العام. أكرر ذلك لمرؤوسي. لكنهم لا يفهمون. بل يضحكون. كانت أمي تقول: الجمل ما يرى حدبته. ولا هم يرونها. لا أحد فيهم أحدب. لكنهم أسوأ من ذلك. كثيراً ما يهزأون بي. خاصة عندما يتأخر الوقت. ويكون الضياء في الخارج أسيلاً أكثر من العادة. أنا لا أستقبل من الزائرين سوى أكثرهم هياجاً. حلوانيون أفرغت القوارض أكياس دقيقهم. أمهات أكل رضعهن... إلخ. ومنذ اعتزم مجلس البلدية شن حملة نظافة على الصعيد الجهوي، صار لدي تقرير يتوجب انهاؤه. لكن، لا يمكن بتاتاً طبع ملصقات برقم فاضح مثل: 5000000 جرذ! ينبغي أن يبقى سرياً. لقد ألحوا كثيراً على ذلك. إن محاولة حرق أرشيفي ترجع إلى ذلك العهد. لحسن الحظ أنني أملك منه نسختين. مسامي هو

الطقس أيام المطر. في الخارج، أعرف، ليس غير الطوفان والوحل. ههنا، كل شيء جلي واضح. على الذين يحظون بامتياز الدخول إلى مكتبي أن يمسحوا نعالهم فوق حصير الألياف اللدنة. حتى لو كان اليوم قائظاً. هكذا تعم النظافة. أحياناً، أعود على حين غرة بعد اغلاق المكاتب. عندما تكون النساء المياومات ينظفن. أعطيهن بعض التوجيهات التي يحتجنها باستمرار! أما في داخلي، فالتطهير يتجاوز ذلك بكثير. وخاصة بعد أن ألغيت اللحم من مأكولاتي. وهو أيضاً باهظ الثمن. في داخلي إذن: فولذ. صمت. انطواء. في كل هذا يغلب لون رمادي. وهو مثال المحايدة بين الألوان. أنا متوهج ووحيد. يحدث أن تتملكني سعادة عظيمة. لكن تلك اللحظات نادرة. كل ما أحرزه من نجاح في تقتيل الجرذان لا جدوى منه. فالسكان يتناسلون بهوس والنزوح يفسد كل شيء. يضيق مجال البشر الحيوي. تحتشد البنى وتنسد. تتفاقم المزابل وتتكدس حسب اطراد هندسي. لكن صنيع الجرذان يتعدى ذلك. نبهوني ألى أن مستودعات التجارة البحرية أصبحت خطرة على عمال المرافىء الذين يرفضون دخولها خوفاً من العض الذي يتعرضون له. لكنني أظل جافاً. مطلياً بالميناء. دون أدنى أثر للعرق. صيفاً وشتاء. أنا وريث أمي في ذلك. كانت سريعة التأثر. وكانت حركاتها ـ لفرط وضوحها ـ تجعل الظل يلتمع من حولها. كانت ـ بكلمة واحدة ـ

فوسفورية. ولقد حافظت بمهارة على المسافات بينها وبين الوالد. ولولا ذلك. لكنا في هذه الساعة عشرة أو عشرين. مطلي من الداخل. معصوم من الخارج. وفي مكتبي ـ حيث أحتفظ باحصائيات سرية جداً ـ كل شيء يبرق. هذا هو سبب حبي الكلمات الوجيزة والشاي المنعنع.

تحت تصرفي إلى الآن خمس فرق لإبادة الجرذان. أنا بحاجة إلى عشرة أضعاف هذا الرقم. كيما يتسنى لي تأمين المدينة التي أشاهدها متدرجة على مستويات بين البحر والهضاب. إنها تجهل الداء الذي ينخرها. لقد سبق ونصحت بعدم ترديد هذا الكلام كثيراً. الأوامر دقيقة بهذا الصدد. وأنا أعرف كيف أكتم السر. غير أن الخطر بهذا التواتر لا يزال ينمو. الميناء رسم أزرق مخربش بهياكل ورافعات. أبداً. ما رأته عيناي ولا وطأته قدماي. يكفيني تخيله. إنه يحصر المدينة التي تغلقها الهضاب المغراء من الجهة الأخرى. لكنه لطخة سوداء على خارطة الكارثة. منطقة منكوبة. ورغم ذلك، فلولا الميناء، لتركت المدينة منذ زمن طويل. لأستقر عند أختي في الريف. هي لم تنجب أطفالاً مع أنها متزوجة. خمس فرق. يا للسخرية! لكني أتوصل، بفضل التنظيم العلمي الذي فرضته على المصلحة برمتها، إلى التوقف على الحالات الأخطر: مثل التدخل في المستشفيات والمدارس والأمكنة العمومية.. الخ. إلا أن المدينة لا تزال تمتد شرقاً وغرباً. بحيث تفلت منا أرباضها أكثر فأكثر. هناك حل وحيد: اللامركزية. لكن

مجلس البلدية أبدى عدم رضاه فيما يخص هذه النقطة أيضاً. لم أفهم السبب. مع أنني أطالع الصحف الصباحية والمسائية. وأحاول الالتصاق بالواقع السياسي والاجتماعي للمدينة التي أصونها من نهم الجرذان. ومع ذلك فلا يجب أن نبالغ. الناس لا يعرفون ما يريدون. ينسون أن وفرة الجرذان أمر حيوي عند حلول المجاعات. التاريخ مليء بالكوارث التي لعبت فيها الجرذان دوراً خطيراً. لقد صاحبت الإنسان في كل زمان. نازحة معه حيثما نزح. ولولا الغزوات، والحروب، والزلازل، والهجرات، لما كانت لتترك منبتها في بيرمانيا. يكفي أن ننظر في خارطة الغزوات حتى يتبين لنا، بوضوح، مسلكها. عبثاً أكرر ذلك للموظفين. فهم لا ينصتون. يزعمون أنها سياسة. وأنهم لا يفهمونها. كما لو كنت أنا شغوفاً بالسياسة. كلا أبداً. ليس للخطب تأثير عليَّ. وحين يصدف أن أقرأ خطاباً رناناً طناناً، أدرك أن السياسيين أناس وحيدون. مثلي، وأجدهم ظرفاء. إلى أن أكتشف الفرق الذي يفصلنا. فأطلب وحدتي. بينما هم يريدون الخلاص منها. ودليل ذلك: الخطب الرنانة الطنانة وحمامات الجماهير! وبخاصة إذا كانوا مكروهين. إنني عندئذ أشفق عليهم وأرثي لحالهم. ثم انهم فضلاً عن ذلك لا يهمونني. لا وقت لدي. الجرذان لا تتركني أرتاح. ترى. أين قرأت أنها في مدينة كبيرة، تستهلك خمس مئة طن من الغذاء يومياً. لا بد أن أكون سجلت ذلك على وريقة ونقلته إلى بطاقة في باب:

الأضرار الاقتصادية. التأكيد ميسور. أرشيفي مرتب يوماً بيوم. ولا أبقي كتاباتي في جيوبي أكثر من أربع وعشرين ساعة. يحدث أن تختلط علي الأمور أحياناً. لكنني سريعاً ما أمتلك زمامها.. وضوح بين. يجب القول أن عدد جيوبي لا يبسط العملية في شيء. إنها بمعدل عشرين. صيفاً وشتاء. أضف إليها جيباً سرياً أغير مواضعه حسب التقلبات البشرية. المرء لا يعلم ما في الغيب. الحذر. إنه الشيء الوحيد الذي ورثته عن والدي. مع هشاشة الرئتين. وذاك الجيب مخصص لانفعالاتي الحميمة. إني أكبتها. ولكنها تفيض. خاصة في الخريف. هذا الفصل يغلي الضوء في دماغي. ويفتت شراييني. أصير مسامياً. وشيئاً ما وجدانياً. قصاصات الورق أملؤها شطوباً. إلى حد الابهام. لحسن الحظ. هكذا إذا أضعت واحدة منها لا يفهم أحد ما كتب عليها. هيروغليفية فريدة من نوعها. رموز خرافية. مجال من التيه. وفيما عدا ذلك، فإن كتابتي واضحة. السكرتيرة نفسها لا تجد صعوبة في قراءتها. لا أحب أن أتبسط كثيراً في الحديث عن هذا الموضوع. ضعفي هو الانفعال. لكنه يصيبني في فصل واحد. وهو محدد بدقة ومكافح بجدية. إنه المرض الوحيد الذي يدفعني للاستعانة بالطبيب. لدي مهدئات خاصة بسقم الخريف. لا يعلم بها أحد. بفضل الجيب السري الذي أغير موضعه كل يوم.

الأفق الوردي يرسم خطاً دائرياً. لا يزال المطر

يتساقط. من وراء الزجاج. يتهاوى الليل منحلاً في الفضاء. هذه الجملة الصغيرة يجب اخفاؤها في الجيب السري الذي يحدث ألا أجده أحياناً. لفرط ما برعت وأبدعت في فن اخفائه. لكنها تبقى لعبة ممتعة. أصرف فيها ساعات حين لا يكون لدي كتاب جديد أو مقالة عن الجرذان للقراءة. أنا بأية حال مؤرق. وتلك أفضل طريقة لكي لا أحلم. وكي لا تصبح عيناي صردتين في الغد. الموظفون لا يترقبون سواها فرصة. إنهم يراقبونني ويترصدون. إذن، فلأتجنب الأحلام. ليلاً. أقرأ. أراجع. أحصي معدلات. أجرش حمصاً. أفكر بحياة الجرذان الرائعة. وبكل الهموم التي تسببها لي. إذا ما وخزني التعب أنام ساعة. كيما أسترد قواي. وفي الفجر أقوم بمزج السموم. فيما تنام اليرابيع التي أربيها في القبو مطمئنة ومتخمة بالحلويات. إني أعرفها جيداً. هناك دائماً واحد يظل ساهراً ليعلن الطوارىء عند أدنى محاولة اقتراب. أعرف كيف يكون التعامل معها لمعرفتي بنفسيتها. تعبيراتي شهيرة ومعروفة من كل الأخصائيين. أتلقى رسائل من كل بلاد العالم. يحاولون فيها تملقي كيما أبوح لهم بطريقتي في العمل. لكنني صعب الخداع. وبما أنني لا أملك تحت تصرفي سوى خمس فرق، فمن اللازم أن أظهر علمي ودرايتي بفنون المزج. المسألة متعلقة بأمن المدينة. بل وبازدهارها الاقتصادي. لكني لا أريد الاسترسال في حديث يمكن تأويله كمحاولة تسييس ظاهرة. هي بعد كل

حساب، حيوانية، باستثناء انفعالاتي. ليس لدي ما أخفي. في الظهيرة، لا أخرج للغداء. أقفل باب المختبر. وأمكث فيه مستمتعاً. محدقاً ساعات في القوارض. وهي تجوب المتاهات. وترسم انعراجات مجردة إلى حد يجعل الهواء شبه عمودي. إن الندم ليتملكني في تلك اللحظات. وتحزنني الحرب التي أشنها على هذه الحيوانات الموهوبة جداً. إنني أفضل في بعض الأيام عيشة مسالمة. أو على الأقل هدنة وقتية. غير أن رؤسائي يراقبونني. ليس بوسعي فعل أي شيء من شأنه تعطيل مسيرة المصلحة التي أحمل عبأها على كاهلي. إنني ملتزم بوضع خطط دقيقة لإبادة أكبر عدد ممكن من هذه الحيوانات. لذلك تراني أترصد كل ما يستجد في كيمياء السمامة وطرقها الطليعية. وفي اللحظة ذاتها تستحوذني الرأفة عند فترة الاستراحة. وأنا أراها مستغرقة في ألعابها المسالمة وسباقاتها المهووسة. وما أشد صبر الإناث التي تهب أثداءها لترضعها الجرذان الصغيرة طيلة ثمانية عشر يوماً. إنها لرقة تعجز عن توفيرها امرأة لرضيعها الوحيد. بوسع أنثى الجرِذ أن ترضع خمسة عشر في آن واحد. الألوان كامدة. الكلمات تسلخ دماغي. الشعر الصدفي بنعومة التفتة الحريرية. إن ما يزيد في رأفتي على هذه الحيوانات كوني أصنع لها لعباً بنفسي. مستعيناً بسلك حديدي. للآباء عيون خزفية تحملق باعجاب في مهارة نسلها. ها إن الانفعال يتملكني من جديد. ليس لي الحق في الاستسلام. أعترف بأن حياتي كانت لتخلو من

المعنى لولا وجود هذا الجنس. إنني أتحمل كدري بمفردي إذن. تسجيل هذه الجملة التي تبدو عديمة الأهمية على أصغر قطعة ورق موجودة ووضعها في الجيب الواحد والعشرين.

مطر دوماً. الفرقة رقم 1 المسؤولة عن صيانة قناة الغاز التي تعبر تحت المدينة متجهة إلى بلدان نائية. لم ترجع بعد. إنها تنكد حياة بضعة آلاف من جرذان المثاعب ( ) والفئران ( ) التي ترهقها بدورها. وتتحين فرصة العض بقسوة. إن قناة الغاز هذه لتكدرني على الخصوص. أقل ثقب فيها يعادل كارثة. واختناق المدينة بثروتها الأكثر نفعاً. اليوم، فيما عدا هذا الانتظار للفرقة رقم 1، يحدث جيداً ألا أجد حتى دقيقة واحدة للتفكير بلقاء هذا الصبح. إن قلبي ليدبق لا لشيء سوى لمجرد استعادة الحدث فقط عشر ثوان. ولن أتحدث عن رئتي. لقد نسجتا من ساتان. مثل رئتي أبي. الشغل كثير. والوقت ينزلق. لحسن الحظ أنني في الليل أواصل قراءاتي وأبحاثي. همومي متعددة مع ذلك. لكنها ليست السبب في أرقي. لقد ولدت مفتوح العينين. أمي جازمة بهذا الصدد. ومنذئذ لم أتبدل. جعلت من الحذر مبدأ حياة. إنني يقظ بمفردي. كيف لا. وحياة مدينة بأسرها منوطة بعهدتي. كل حياتها: الميناء. قناة الغاز. المطامير. خزانات الماء. الأسس. الناس لا يتصورون أن مدير مصلحة إبادة الجرذان يمكن أن يحمل مثل هذا العبء. ومع ذلك، فهي الحقيقة،

حتى وإن كانت الميزانية المخصصة لنا سنوياً غير كافية. وهذا واضح. مع التضخم ترتفع أسعار المواد الكيمياوية بسرعة عجيبة. لكنني مبرهن على حذقي. بل لقد توصلت إلى بعض التوفير احتياطاً لاجتياح كبير تقوم به جرذان المثاعب سنة قحط. إنها تستهلك كمية عجيبة من الماء. وليست هذه حال الفئران. التي هي أكثر قناعة من جمالنا. لا يزال المطر ينهمر. والزجاج يحول إلى البنفسجي. فيما الفضاء تفترشه العصافير ورائحة الحبق. إنني مسرور في الحقيقة. هذا نهار طويته مثل منديل بال. الأخطاء الاملائية للسكرتيرة. تأخر الفرقة رقم1. طرطقة الآلة الكاتبة. تأخري بسبع دقائق. لقاء هذا الصباح. شكوى سائق الباص من غلاء المعيشة. زيارة جرذان المختبر. تقرير عن حملة نظافة محتملة. كل هذه الأحداث تملأ نهاراً. حياة. فراغاً. كلمة لا جدوى منها. تحذف. أو تخفى. في الجيب الواحد والعشرين. حتى لا يعلم أحد ما أشعر به حقاً. لا يجب أن يبرز من شخصيتي سوى غايتي الاجتماعية وحسب: مدير مكتب إبادة جرذان المدينة. هذا ليس بالشيء القليل. النوافذ تحول إلى لون الباذنجان. والزوار الأخيرون لهم أصوات مقلوبة. تبلغ مكتبي كأنما بللها المطر الذي لا يني يحفر أثلاماً طويلة على الزجاج. بحيث تعطي كثافته احساساً خاطئاً بالمرونة. لعل ذلك بسبب البخار. أنفاسي ملتصقة بمرآة. شبكات واسعة متداخلة. متاهة أخرى تحت البلور. ومع الظلام الساقط، وقبل أن أنير، ينتابني احساس

بفقدان حواشي وحدودي. لكن، أي جهد يبذل من أجل عبور الفراغ الذي يلف بصرد كلماتي. لم يبق سوى نسخها. قبل أن أعود إلى البيت مليئاً باحساس الواجب المنجز على أتمّ وجه. لست واهماً. عروقي معقودة كأنها ملتحمة بالقوس الذي يبهرني تألقه الأزرق. انفعال آخر للكبت. عدم نسيان أي شيء على المكتب. التحقق من وجود جميع وريقاتي في جيوبي. إنني لست أياً كان حتى أترك أسراري منتشرة خلفي. حل الليل. وجاء يلامس خدي. ويملس ذقني.

اليوم الثاني

الجمعة يوم ذلق. لا ينقطع المؤذن فيه عن الأذان. أنا من الاخلاص للدولة بحيث لا يسعني الايمان بالله. انقطع المطر. إنه يوم عطلة. أبقى بالبيت. أبحث عن موضع غير مالوف أخيط فيه جيبي السري. بالأمس لم يكن مخفياً جيداً. كان يضايقني حين أسرع خطاي. جائز أن تكون خصيتاي بمثل هشاشة رئتي. افراط في الحميمية. فسخها. يجب أن أجده بسرعة. أنا لن أقضي نهاري في البحث. تلقيت نموذج سم اكتشف مؤخراً. له مفعول خاطف. فكرة اختباره على أحد جرذاني تستهويني. جاء في الكلمة التي ترفقه ما يلي: «العنصل الأحمر سم لطيف القتل. يستخرج من بصلة الزهرة المعروفة بالاشقيل. يتمرحل مفعوله على ثلاثة أوقات. ينعس الحيوان أولاً. ثم يبلده. فيقتله». أجد هذه الطريقة ذكية جداً. تذكرت فوراً المحكومين بالإعدام. مثل هذا السم يستطيع بجدية أن يجعل الإعدام أكثر إنسانية. لكن ذلك سيكون مؤسفاً. ألسنا نبيد الجرذان. إنها في الحقيقة ليست مشكلتي. أجدني ميالاً إلى تسييس كل

شيء هذه الأيام. وهو ما لا ينبغي. الجرذان وحدها لها الحق في كامل عنايتي. يوم ذلق. المؤذن ينادي للصلاة مرة أخرى. لا بد أن الجوامع فارغة شيئاً ما. فمواطني تجتذبهم أشياء عديدة يوم الجمعة: هناك كرة القدم. والدين. وأفلام الكاوبوي. والسكرة الأسبوعية. بعضهم - أي أكثرهم حماساً - يستطيعون التوفيق بينها جميعاً. وهم أبداً لا يتخلفون. أحد موظفي يتقن هذا الفن غاية الاتقان. وهو مع ذلك صادق. وأنا أتغاضى عن جراحه يوم السبت. إنه لا يني يزعم أنها غلطة الحكم. وهو في الواقع يثير الفتن في حانات المدينة. يجدر بي أن أجد موضعاً مناسباً للجيب الواحد والعشرين. ثم أروح لاختبار السم الجديد. كنت إلى الآن مكتفياً باستعمال مضادات التخثر البطيئة. وهي أجدى المواد. إذا ما احتسبنا لذكاء الجرذ المتوقد. إن له موهبة خاصة في اشتمام كل طعام مشبوه واحباط جميع الأحابيل. يستغرق القضاء على أكثر الجرذان صلابة مدة تتراوح من ثلاثة أيام إلى عشرة. أما الفئران فموتها أيسر. إنها كثيراً ما تخطىء عن طيبة خاطر لأنها أقل ذكاء من الجرذان. أضف إلى ذلك أن الخطر الحقيقي الذي يهدد قناة الغاز إنما يمثله جرذ المثاعب (   ) القادر على ثقب الفولاذ. لكنه والجرذ الأسود، لا يستطيعان شيئاً إزاء الورفارين، والبندون (أو البيفالين)، والبرولين. والفومارين، والديفاسينون، والنوربوميد. الخ.(*) والمزج

(*) سموم.

بينها أجدى. لكنه شأني. فليست المسألة تركيباً عشوائياً. بل إن الفن ـ كل الفن كامن في التعبير. ولمعرفة النسب، لا يوجد سواي في كامل المدينة. أنا الذي يعد اللوازم. وليس على العمال بعد ذلك غير توزيعها. لدي عاداتي، وأنا أكره أن أغيرها. لا أزال مرتاباً جداً في هذا المنتوج الجديد (العنصل الأحمر). يبدو رعوياً. لا بل شعرياً. يجب رغم ذلك تجريبه. كيلو من العنصل الأحمر في عشرين كيلو من الدقيق. دقيق، المختبرات الأجنبية تجهل واقعنا أكيداً. نحن نكتفي بإضافة السم إلى الماء. كيلو من السم في عشرين لتراً من الماء. هذا والماء ليس متوفراً دوماً. المدينة تفتقر إليه. بسبب الفلاحين الذين لا يريدون خدمة الأرض. يفضلون عليها رائحة النيون ولون الاسفلت. وليس غريباً أن يكون للوضوء أيضاً علاقة بذلك. لكني ههنا أذهب إلى بعيد. بل أغالي.

خرجت لقضاء بعض الشؤون. بعد أن خطت جيبي السري في موضع صعب جداً العثور عليه. كنت بحاجة للمشي وشراء بعض النعناع. قبل الشروع في اختيار المنتوج الجديد. كنت أحسني يقظاً. وفي تلك اللحظة، تلمحته قادماً من ورائي. لم أتوقف. استمر في متابعتي. أسرعت خطاي وشعرت كأنه فعل مثلي. لا أريد أن أكون قاطعاً مخافة أن أخطيء. لا سيما وتذبذبات الهواء كانت تحزز عيني اليمنى التي تراقب خفية مناورة معدي الأرجل. لم أعد راغباً في الرجوع إلى بيتي. لقد فكرت طويلاً قبل الذهاب لزيارة قوارضي.

وأنا أدخل القبو. أحسست أنني - في الواقع - أحن إلى سماع رنين التليفون. وطرطقة الآلة الكاتبة. وعويل النساء اللواتي مزقت الجرذان أطفالهن. أتفحص الحيطان واحداً. واحداً. أرى صفائح العفونة تنبت هنا وهناك مثل أفواه براكين رمادية وخضراء. الرطوبة تكتسح المكان. غير أن القوارض تحب هذا المناخ. إنه بيئتها الطبيعية. ما أن رأتني قادماً حتى انتصب بعضها على قوائمه الخلفية. وانقطعت صغار اليرابيع عن رضع أمهاتها. أما كبيرها، فقد فتح عيناً واحدة. إنه حذر. يتظاهر بالتلمظ. ولا زلت أنا متفحصاً الجدران وسط دائرة الضوء الأبيض المنبعث من فانوس معلق بالسقف. لم أقرر بعد ما يجب فعله. ولكي أربح الوقت. رحت أتلمس صفائح العفونة بكفي اليمنى. وأجس نتوءات الجدار الرقيقة. المحببة الملتفة حول نفسها. الفائضة أحياناً في هندسة تشكل مربعات ومعينات. ودوائر في الغالب. هذه الشبكة من الخطوط المتزاوجة بعضها البعض تبهرني وتنسيني تجربتي. إنني أستهدف شيخ الجرذان، لاختبار هذا السم اللطيف الذي وصلني في بريد البارحة كنموذج لمنتوجات دار أجنبية. لكنني لا أجد القوة لفعل ذلك. لعل ما يشوشني هو السلوك الغريب الذي كان للمعدي العنيد. قلت في سريرتي ربما كان من الواجب أن أنام وقتاً أطول بعض الشيء. عوض قضائي الليل بأكمله في المطالعة. الحق مع أختي. إنني أشيخ. لم أعد في الأربعين. علي أن أنام عدداً محدداً من الساعات.

بطاقة رقم 103: «حيثما كان الإنسان. كان الجرذان. لقد تبع هذا القارض طرق الغزو قادماً من آسيا. لم يكن موجوداً في أمريكا. لكن الأوروبيين نقلوه معهم في القرن السابع عشر. ليس ما ينقل الأمراض هو الجرذ نفسه. بل هو البرغوث الذي يعيش في جلده. وهو الذي ينشر الوباء الأسود. والحمى الصفراء. والزحار. والثلريات. والسودوكو. والبريميات. والكلب. ودودة الخنزير. والسلمونيلات».

هذه البطاقة احفظها عن ظهر قلب. وأنا أكررها لنفسي حتى أجد الشجاعة لتجريب السم الجديد القاتل بلطف وبلا وجع على شيخ الجرذان. إنه متواجد هنا منذ مدة طويلة. وقد بدأ السم يعمل عمله فيه. فهو لا يستيقظ من غفواته إلا ليلاعب الصغار. الشيء الذي لا يمنعه من اهلاك بشرية لا تحصى ـ لو أتيح له ذلك. إنني في الواقع أفضل إنجاز تجربتي في مختبر المركز. جرذانه أقل تعلقاً بي. ثمة عدد من الناس لا بأس به. يلامسونها. السكرتيرة نفسها تروح لزيارتها. وتطعمها السلطة. إنها تخافها ومع ذلك لا تتمالك نفسها عن مشاهدتها. مرض. يجعلها تعتقدها أرانب. أما اليرابيع، فمستعدة لالتهام أي شيء. لقد ابتلعت ذات يوم قصاصة ورق صغيرة كانت في جيبي السري المخاط. إنها في طرف كمي الأيسر. كانت ورقة انفعال. الأمر الذي جعل وجهي يحمر. فيعتقد المخبري أن اضطرابي مبعثه الغضب. بينما كان ذلك بسبب الخجل.

الورقة كانت تحتوي هذه الملحوظة: الساعة الثالثة و12د.: هملان مني ليلي. إنه شيء حميمي جداً. ومقرف جداً. هذا النوع من الحوادث نادر مع ذلك، أعتقد أن قراري في التخلي عن اللحم يعود إلى ذلك اليوم. إن ما يغم البشرية من الداخل هو الحسية. إنها تنتهي دوماً بالتناسل. فتضيق الأرض. وإذا ما نقص المجال الحيوي في المستقبل، فذاك لن يكون خطأي. إنني لا أراني متأهباً لإخصاب أنثى متهيجة، لكن هأنذا أخرف عوض اتخاذ قرار. الأفضل أن أترقب الغد لتجريب العنصل الأحمر في يربوع ويربوعة من المختبر. بل وأفضل من ذلك أن أجربه على كل نوع من الجنس. أي أن أعمل ست تجارب على ستة أنواع مختلفة. فهي كالتالي:

1) جرذ المثاعب.

2) جرذ أسود.

3) الفأر.

4) فأر الغابات.

5) فأر الحقل.

6) الفأر القفاز.

سوف أهتم بهذه العملية في فترة الراحة بالظهيرة. أكون آنئذ وحيداً. بعيداً عن عيون المخبريين. هم بالمناسبة لا يعرفون فعل أي شيء. تفسدهم الرتابة. وتخوي أذهانهم من فكر المبادرة. لكن، ما أن أعتزم شيئاً حتى يشرعون

في انتقادي. دون الحاح كثير. فهم يعرفون عقوباتي القاسية.

مساء يوم الراحة. الجمعة يوم هادىء. ما كان ينبغي أن أخرج. هيهات الآن. لقد رآني وتبعني. الجامع. بنوه في أسفل الشارع. جامع جديد يبرق. عصري. لكي نلخص، الأذان من جديد. وله صومعة. ودرج يفضي إليها. لكنهما غير مجديين إذ إن مضخمات الصوت تبث صوت المؤذن. لم تعد الصوامع تنفع. بعض ألسنة السوء تقول إن صوت المؤذن قد عوضوه بأسطوانة مستوردة من مصر. فلم يبق عليه سوى وصل الالكتروفون بالكهرباء. ومع ذلك، فهو تبذير. ليس هذا انتقاداً لسلطة البلدية. لكن الأجدى أن تبنى الجوامع دون صوامع كيما تكبر ميزانية مركز إبادة الجرذان. بهذه الطريقة، يكون الله راضياً. وأنا كذلك، وبالمناسبة. إن أخلاصي للدولة هو من التفاني بحيث لا مجال معه للايمان. لكني أفهم حاجة الجماهير إلى الدين. زد على ذلك أن المهندسين المعماريين هم الذين يفتقرون إلى البصيرة. فأما كون مساجد الغد سوف تخلو من المآذن، فهذا ـ مع ازدهار تقنية السمعيات ـ أمر مؤكد. لو لم أخرج لما بلغت هذا الحد في التفوه بانتقادات شديدة الشبه بالقدح. كل هذه الفقرة تشطب. لا يجدر بموظف مثالي أن يكون بمثل هذا الظن السيء. هناك سوء تفاهم. إن هذا التوتر الدائم يخشن طباعي. سوف يتلاشى الضيق عندما يقبل الليل. بالي مشغول إلى حد كاد ينسيني حادثة

هذا الصبح. وبالرغم من كل الهموم فأنا أحن إلى مكتبي. لعلني أيام العطل أميل إلى الافراط في الكتابة. واجترار الماضي. وتذكر أمي. واخراج صندوق الأحذية الذي أخبىء فيه صورها. الحنين نحس، لم تكن تحبه. فهو للنساء والمسلولين. حقاً أن رئتي هشتان مثل أبي. كانت أمي تقول: ابن الفار يطلع حفار. والحق معها. ألم يجد شيئاً آخر يورثني إياه. إنها للطيفة هديته، كان حذراً مع ذلك. وأنا في هذه النقطة خليفته. أجل. من الأفضل شطب ما كتبت عن معمارية المساجد. لا يجب التردد. أما كبير الجرذان، فهو يثير شفقتي. أعتقد أنني سأتركه يموت شيخوخة. ليس هو من قد يلحق الأضرار بمطامير حبوب المدينة. ولا هو من قد يخل بقناة الغاز الآتية من الصحراء. أفضت البارحة في تعويض تأخري. ثلاث ساعات منحت لأجل سبع دقائق. لو كان كافة الموظفين ينتهجون سلوكي، لكانت المدينة أنظف، والمجاري أقل نتانة. كنت علاوة عن ذلك ـ كأنني أتوجس بغموض وقوع شيء ما. لم أكن مخطئاً. كان هو نفسه هنالك. كلا. يجب تجريب العنصل الأحمر على قوارض المختبر. فعندي، لا يوجد في القبو بأية حال سوى الجرذان السود. بالأمس، انهمرت الأمطار بغزارة وبلا انقطاع كامل اليوم. إنها أمطار خريف. الفصل الذي أستاء منه. غموض كثيف يشحن الجو. الأشكال تعج. ويغدو زجاج النوافذ مرايا محدبة. يتحرك الهواء. يشوش الخضرة. النتيجة: احتلام.

وهملان مني. إنني أفهم سكان مدينة «أقبر»(*) العراقية. الذين أقاموا في القرن السابع الهجري دولة مستقلة الكيان. لقد حرموا المرايا وامتنعوا عن التناسل. لأن في ذلك مضاعفة لعدد البشر. يجب الاحتراز من المرايا أيضاً.

أنا في واقع الأمر غير موافق على ما يهدره الباحثون من مواهب في صنع سموم أكثر فعالية ضد الجرذان. فإذا كان المستقبل للجوامع التي بلا صوامع، فإن مكافحة الجرذان لن تنجح دون الإفادة من علم الوراثة. لقد سجلت على بطاقة ذات يوم ما يلي: إننا نرى امكانية هائلة لم تدرك بعد أهميتها. إنها طريقة ثورية في مكافحة جنس الجرذان المفسد. لم تحظ بعد بما تستحقه من تمحيص ودراسة. وهي تتمثل في تعديل إباضة القوارض بدس هرمونات جنسية في طعامها. مما يقلص قدرتها على التناسل. وبذلك، تسقط تبعاتها الاقتصادية. حتى انقراض الجنس تماماً في بضعة قرون. هذا إذا ما تواصلت المكافحة كما ينبغي. قرأت هذا المقال منذ عدة شهور. وفي ضوء المصباح لخصته. هنا يكمن مفتاح المعضلة، ليس إلا. يا للتوفير العظيم، توفير في وسائل النضال. توفير في ما يحدث من أضرار وسواه في الخسائر المبهمة التي يسببها ـ في نهاية الأمر الجرذ. صحيح أن مركز إبادة الجرذان سوف يفقد في تلك الحال مسوغ وجوده. لكنها مخاطرة أقدم

(*) لست واثقاً من وجود هذه المدينة. غير أن الروائي الأرجنتيني بورغيز يذكرها في إحدى قصصه. (المترجم).

عليها راضياً. فأنا لو أصبت غايتي ـ ربما حظيت بلقب موظف مثالي وتحدثت عني الكتب المدرسية. لكن، هأنذا أخرف من جديد. وأسمح لنفسي بالدخول في اعتبارات مفرطة التفاؤل. غير أنني بالمقابل لا زلت على اعتقادي أن مستقبل إبادة الجرذان كامن في الهرمونات الجنسية وفي الوسائل الواجب اتباعها من أجل خفض مستوى التناسل لدى القوارض. وبالانتظار. فإن الشعار الواقعي الوحيد يبقى 5000000 جرذ تهدد حياة المدينة. الجماهير بحاجة إلى التبسيط. وآنئذ يعمل التأثر عمله. علاوة عما ستكلف من مصاريف حملة النظافة هذه التي يزمع مجلس البلدية الشروع فيها. تلك المصاريف التي يفضل به كثيراً أن يوفرها لميزانية مركز الإبادة. عندئذ، يكون لدي عشر فرق إغاثة عوضاً عن الخمس الحالية التي لا تكفي للاستجابة الى كل الطلبات. ومهما جهدنا، فإن الضواحي لا تزال تتناءى عن المركز. هذه جملة مؤثرة. يجب تدوينها على وريقة. عندي اليوم فسحة من الوقت كافية لنسخها. إنه الجمعة. يوم عبادة. وإذا كانت تكاليف الجامع الجديد تحضر ذهني فذلك لأنني تبرعت بالمال من أجل بنائه. وهو ما فعل جميع سكان الحارة. لم يكن يسعني أن أرفض. بل ولقد كنت قدوة. أظهرت حماساً كيما يحسن رؤسائي بي الظن. إذ إن جميع جرائد المدينة نشرت قائمة أسماء المتبرعين الأكارم. تبخرت كل مدخراتي. وأما عن المنفعة التي سيعود بها علي بناء الجامع فحدث، إذن.

فالضواحي تبتعد عن المركز بسرعة عجيبة. الشيء الذي يجعلنا نركز جهودنا على وسط المدينة. حيث تكثر المطاعم. ودكاكين الحلويات وغيرها من المآكل. وحيث تتعدد مآوي القوارض وثوى العدوى الناشرة أمراضاً سريعة الاستيطان. إن ما قد ينجر عن هذا الوضع من آفات اقتصادية يمكن أن يبلغ أرقاماً فلكية، ويكبح بالتالي نسبة نمو الانتاج الوطني الخام.

يوم عطلة. الحي هادىء هذا العصر. لا حاجة بي إلى حشر القطن في أذني. إنني أحب وحدتي. كانت أمي تقول: الخلطة بلط والجرب يعدي. أولاد الحارة مضوا منذ الصباح إلى الملعب. حتى يتسنى لهم الاحتيال والدخول. في بعض الأيام أقول في نفسي إنني محظوظ. فهذه أعصر الجمعة تهدأ بفضل كرة القدم. أما في الصيف، فالبحر يتولى إبعادهم. ليس لدي الكثير مما يدعو إلى الشكوى. حق أنني أقطن حياً سكنياً. ومؤكد أن ظروف العيش فيه تدهورت حتى لم يعد له ما يميزه. لكنني باق فيه. إذ أن ظروف سواه أسوأ. هذه الظاهرة تسمى علمياً الديموغرافيا. هكذا أفضل الحديث عن الكوارث التي يسببها الحب. كتبت ذلك على وريقة. الطقس جميل. لكن ما كان علي أن أخرج. رغم الهدوء، وصحو الطقس، والشغل الذي أعمل على انجازه بمنتهى العناية. لدي انطباع بأن نهاري أفسد. حياة بأكملها كرستها لتحسين الظروف الصحية التي يعيش فيها مواطني. وها هم كيما يكافئوني لا ينقطعون عن

انجاب الذرية، الحق مع أمي. تأبيد الجنس ضروري. أما الباقي فوجدانية. تلك كوارث الحب. ذكور الجرذان رقيقة جداً مع إناثها. أما حضنة الصغار... فمثال، يجب أن تقتدي به الأمهات في هذا الحي. وهن من يطلقن ذريتهن في الشارع قبل فطامها. أنا أبداً لا أضجر. فهو أيضاً يوم الغسيل. عنايتي البالغة تمنعني من تسليم ثيابي إلى مغسلة. وهو كذلك اليوم الذي أنظف فيه البيت بأكمله. أبداً لا أحد عتب بابي. إني أحتاط كثيراً من الخدم. ورثت ذلك عن أبي. هن فضوليات وسارقات. قد يبثثن الفوضى في أوراقي عوض الترتيب. أختي نفسها لم تدخل بيتي. هي تسكن بعيداً. أذهب لزيارتها أربع مرات في السنة. أول أيام الجمعة من كل فصل. وهو ما لا أفعله قط أيام الأعياد الدينية. يؤسفها ذلك. لكنها تحترم مبادئي. تزعم أن هشاشة رئتي هي سبب إلحادي. لا أريد معاكستها. فهي تشبه أمي. نفس العينين. نفس الشعر، نفس البشرة، سوى فيما يخص الساق التي تقصر الأخرى. إنها لتكاد تعرج. هي لا تحب أن أقوم بأعمال المنزل بنفسي. ولا تني تكرر أنه شغل خادمة. معها حق. لكن مجرد التفكير بأن امرأة تلمس ثيابي يشعرني بالغثيان. وعندما يحدث لي هملان مني ليلي أتخلص من تلك الملابس باحراقها في الحديقة. لحسن الحظ أن هذا النوع من الحوادث نادر. وإلا، لست أدري كيف يكون العمل. إن جراية مدير مكتب إبادة الجرذان ليست من القوة بحيث تسمح لي بارتكاب

جنونيات. موجز القول. يوم عطلة. العصر هادىء. لم آكل شيئاً. أشرب كأس شاي منعنع كل ساعة. أكتفي بالقليل. خرجت هذا الصبح لشراء النعناع. إذ لا يمكنني الاستغناء عنه. انتهيت إلى قرار العفو عن جرذي العجوز. حقاً أختي كسيحة. بالكاد: الناس لا يلاحظون ذلك. يجدر بي تدوين هذا الكلام على قصاصة صغيرة ووضعها في جيب الانفعالات. إني أرتب هذا النوع من الملحوظات عندما يتقدم الليل. أميل إلى نسيان عرج أختي. لعل سبب ذلك الشبه الكبير بينها وبين أمي التي لم تكن تعرج. أنا أعيش وحيداً. بلا أصدقاء. يا للسعادة، كانت أمي تقول: الخلطة بلط والجرب يعدي. وحين أرى الآخرين يحتشدون في مساحة ضيقة مع فيلق أطفال.

أفكر بحظي. أنا مدين به لأمي. لدي منزل صغير أنيق. وبسيتن أوليه عناية عاشق. حذفها. وشغل رائع. واخلاص للدولة متفان. إني أصون خلوتي أشد صيانة. وأراقب رئتي عن كثب. ولا أضجر أبداً. يقرفني الآخرون. والموسيقى تصيبني بصداع مرعب. أعيش وسط غبطة الصمت في بيتي. لا تنخرني الهموم سوى في المكتب. لكن أعترف أن طرطقة الآلة الكاتبة وجرس التلفون وأصوات المستغيثين شبه المقلوبة (أيام المطر)، كل هذه تعيد لي وفاقي مع العالم. إضافة إلى جمال المساءات المشاهدة من مكتبي. حين أبصرها ترتخي بتلك الليونة أحسني أغيب. حذف الجملتين الأخيرتين لشدة التباسهما إنني إذا واصلت بهذه

الطريقة. سوف أنتهي باخراج صندوق الأحذية. بما فيه صوري يوم كنت رضيعاً. وصور أمي. لا أرغب في البكاء هذا المساء. أشغالي كثيرة. أما النظر في الصور فهو شغل امتيازي. لا يجب الافراط فيه. وإلا، تعرضت لخطر نسيان الجوهري: مكافحة القوارض المفسدة.

سوف أؤلف يوماً كتاباً عن محاسن الجرذ. سبق أن تحدثت عن هذا الموضوع في موضع ما. الناس لا تعرف ما تريد، تفهمني البلدان التي تستوطنها المجاعة. إن لهذا الحيوان دور ايجابي في الحالة تلك. وكذلك عند وقوع الزلازل. فهو الذي يطلق الانذار. إنه يحدس. وهذا هو الشيء الذي يشغلني. فمكافحة كائن بمثل هذا القدر من الموهبة ليست من الراحة بمكان. كان قدامى الإغريق يحتسبون له. وما أن يختفي من مدينة حتى يسارع سكانها بهجرتها. بعيد ذلك. يجتاحها زلزال. الجرذ مرجاف ومن الجائز أن تكشف البحوث عن فضائل أخرى في القوارض. لولا الأحكام الجاهزة الراسخة، الناس لا يعرفون ما يريدون. إنهم يجهلون التاريخ. أما أنا، فمختلف. سبق وكتبت شيئاً عن هذا الموضوع. باب: «الجرذ في التاريخ». بطاقة رقم 154: «في 26 تشرين الثاني (نوفمبر) 1870. قررت أكاديمية العلوم في باريس أن الجرذ مقبول ـ دون سابق أحكام ـ في غذاء العاصمة. وقد وقع فحص الكلب. والقط. والجرذ. مع الصلصة في مأدبة العلماء. ونال الثلاثة اعجاب الحاضرين وتقديرهم. حتى أن

احصائياً موجوداً قوم معدل الجرذان الساكنة باريس بـ: 35000000 جرذ. هكذا صار رباعي القوائم الصغير هذا هدف تجارة نشيطة. كان ثمنه يتراوح بحسب اكتنازه ـ بين عشرين وخمسة وعشرين سنتيماً. وارتفع بعد ذلك حتى بلغ الواحد أربعة فرنكات. أكيد أنهم لم يكونوا بحاجة إلى مبيدي جرذان عصر ذاك في أوروبا. ربما كان من واجبي التلميح ـ في تقريري عن حملة النظافة الآتية ـ إلى ضرورة مكافحة الأفكار الجاهزة التي تستهدف هذا الحيوان اللبون. لكن، سيكون ذلك عنيفاً أكثر من اللازم حتماً. تلميح آخر ينبغي التخلي عنه. أنا واثق من أن المواد لا تنقص لمثل هذا التأليف. يكفي أن يتجلد المرء. ويطالع كتب التاريخ. وفي الانتظار. عليَّ أن أطعم جرذاني. حين أفكر أنني لم أعد أقوى على تسميمها... إنه الهرم. لا شك. أتراني أقوم بنقلة عاطفية. يا للتدهور، نزعة أخرى لا بد من محاربتها. الوقت يمر بسرعة مفرطة. ومع ذلك. فأنا لم أتوقف. بل إنني لم أنم بالأمس. ولا أشعر اليوم بأية رغبة في الطعام. أرق. وخلفة. هأنذا مفعم. لم أغمض عيني. سهرت الليل طوله أرتب بطاقاتي. في الصباح، كانت زرقة الفجر مائعة. للتدوين. هذه جملة نفيسة.

أحسني مفعماً بالصفاء. لكن تعذبني الرغبة في فتح صندوق الأحذية الذي أخبىء فيه صوري العزيزة. أعتقد أنني فتحت شرخاً في علم الحيوان الكلاسيكي بفكرة تأليف كتاب حول محاسن الجرذ. إنها أطروحة ثورية. لكنها

ليست ميسورة الاثبات. ورغم ذلك، أعرف نفسي. لدي صبر الصبار. هذا ما كانت أمي تقول لامتداحي. كانت واثقة من نجاحي في مهنتي. وأنا أجهد حتى لا أكذبها. لقد وهبت حياتي من أجل انجاز عملي على أكمل وجه. سوف أخلف للأجيال الآتية ميراثاً. ها تصلني أصوات الصباح الأولى كأنها مصقولة بالضباب الذي يكتسح الشارع والبسيتن رويداً رويداً. حريرية. متزغبة. هي ذي الكلمة التي كنت أريد. تماماً: متزغبة. إنها تحتوي كل شيء. لا حاجة بنا إلى اللغو. فهي تكفي ذاتها بذاتها. كانت أمي واثقة. لم أخيب ظنها أبداً. في حياتها ومماتها، كانت واثقة من نجاحي. وفي الحقيقة، كان ظهور نزعتي مبكراً.

اليوم الثالث

وصلت اليوم مكتبي في الوقت المحدد. المطر يتساقط من جديد. لم ينظر الموظفون إلى ساعة الحائط. إنهم لم يصلوا بعد. ركبت باص الثامنة والنصف. حسناً فعلت. أنا لا أستطيع تحمل أكثر من تأخر واحد في الأسبوع. سائق العربة القديمة أبكم. بل وأعتقد أنه أصلع أيضاً. لكني لا أقسم على صحة ذلك، إذ نه يعتمر القبعة القانونية. كانت أمي تقول لي: رأس الفرطاس قريب لربّي(*). يبدو هذا الرجل محترماً. إنه لا يشكو أبداً من غلاء المعيشة، ويعرف كيف ينفذ من ازدحام المرور. ورغم وصولي في موعدي، فأنا مع ذلك لا أحب الأيام الممطرة. الأطفال يقسون، والمرور يعسر. لم أره. على طول المسافة التي أقطعها سيراً على الأقدام من بيتي إلى الموقف، أجلت بصري باحثاً عنه. لا أثر له. مع أن

(*) رأس الأصلع قريب من الله.

المطر لا يني ينهمر، حتى أني لم أعد أتعرف بستاني الذي أغرقته المياه.

إن فكرة وجوده دون أن ألمحه تجعلني عصبياً. فهي أسوأ من رؤيته. أنا أفضل مواجهة الخطر. وما يرعبني هو سلوكه الشبيه بسلوك السكرتيرة. إنه يزدريني، ويراوغني. أوشكت أن أعود أدراجي للبحث عنه في كل مكان وتفتيش الحديقة. لكن خفت أن أتأخر. فعجلت. هكذااجتنبت ثرثرة سائق باص الثامنة وخمس وأربعين. الحق أنه ليس أصلع. أنا متيقن، لأنه لا يترك أبداً قبعته على رأسه، وعلاوة على ذلك يدخن. بلغت الشغل بضع دقائق قبل الوقت. تحققت من نظافة المحل. لاحظت تحسناً لدى نساء التنظيف في تأديتهن العمل. لقد شرعن في الاقتداء بي. كان أول ما فعلت حالما دخلت مكتبي، هو أن قمت بتركيب جهازي: بيني وبين زائريّ القلائل، أضع روزنامة ضخمة أحصرها بين قاموسين. أحدهما في علم الحيوان. والثاني لغوي. وبهذه الطريقة، لا يمكنهم النظر في عينيّ. بينما أترحل في الزمان. أقرأ وأعيد الشهور والأيام. لكن، لا تفوتني كلمة مما يقال. إن هذه الطريقة في المحافظة على المسافات تجعلهم أكثر ايجازاً. روزنامتي تضيعهم، فهم لا يعرضون أنفسهم للفرجة ولا يظهرون فزعهم. وبفضل هذه القطعة من الكرتون الموضوعة على حافة مكتبي، مضغوطة بين قاموسين، لا يسعهم أن يتفحصوني، وفي الوقت ذاته، يحافظون على وقارهم. لكل مقامه.

هكذا أضع حدوداً للألفة. أحسني عصبياً بعض الشيء. مع أن أرشيفي مرتب. تمكنت البارحة من العمل بهدوء. هواة كرة القدم عادوا من الملعب صامتين. فريقهم خسر المقابلة. هو دائماً خاسر، بالمناسبة. في المرات المعدودة التي ربح، كانت العودة من الملعب كابوساً حقيقياً. مما يدفعني إلى حشو أذني بالقطن والنزول إلى القبو، للاعتناء بقوارضي. كان يوم العطلة مثمراً. وصلت قبل الوقت بقليل. وطوال المسافة، لم ينبس سائق الباص بكلمة. بل وقد حصلت على مقعد شاغر. ومع ذلك فأنا عصبي هذا الصباح. ربما لأني لم أره. غريب! أكاد أغتم. لأنه ضعف. ما كانت أمي لتحب مثل هذا السلوك. الغم للنسوة والمسلولين، كانت تقول. إنه الشعور بالخطر المحدق. حكاية الغم هذه ليست في محلها. حذفها أو اخفاؤها في جيب الانفعالات. أنا لا أتقاضى راتباً لابداء الغم، بل لصيانة المدينة من اللبونات الماكرة. يجب المحافظة على قوة حركات الأيام العادية.

على مكتبي، تقرير الفرقة رقم 1. إنه يتحدث عن بعض الدلائل المقلقة، التي لوحظت في الجزء الشمالي ـ الشرقي من قناة الغاز. ويؤكد وجود عصابة كبيرة من جرذان المثاعب تنشر الرعب في الدواميس التي تعبرها الأنابيب. وقد اكتشفت الفرقة مئات من جثث جرذان سوداء وفئران مزقها نهم اخوتها الضارية. أما الآثار التي خلفتها هذه الأخيرة، فهي لا تفضي إلى مكان. لأنها تعرف كيف تضيع

مقتفيها. وقد ضوعفت كمية المبيد. كل هذه الدلائل مقلقة. أحس غمي يزداد. وكذلك المطر. صار من الضروري وضع خطة حربية للقضاء على هذه الشرذمة التي تسن قانونها، وتحاول ثقب قناة الغاز، ساخرة من خليط الوارفارين، والبندون، والبرولين، والفومارين، والويغاسينون، والنوربورميد، الذي أحضرته بيديّ. وغدا من الواجب استخدام الوسائل الكبرى. إلا إذا كانت الوثيقة لا تزيد عن كونها مجموعة أخبار كاذبة لفقت لتبرير تأخر الفرقة وتعذيبي. حتى اليوم، كانت قناة الغاز محمية جيداً. وإذا بدا الآن لجرذان المثاعب أن تزدريني، فهذا ما يتجاوزني. كان باستطاعتي قراءته فيما بعد، هذا التقرير. لكن! أنا منهك. مسحوق بعبء هذه المسؤولية. من سيساعدني في مهمتي؟ لا أحد! وإذا ما حدثت الكارثة، فأنا الذي سيمثل أمام المحكمة العسكرية. إني لا أخاف الموت. لكن، أتنتهي كل هذه الجهود بلا جدوى؟ وفي الانتظار، يجب الشروع في العمل. سوف أتخلى عن مضاد ـ التفشي، وأستعمل مزيجاً من السموم السريعة والسموم المدخنة. أعرف الطريقة. أما هذه المرة، فهي الوسائل الكبرى. تجمع من جهة: الألفاكلورالوز مع الستريكنين وفوسفور الزنك والأ.ن.ت.و.، ومركب 1080، وسولفات الثاليوم. ومن جهة ثانية، تجمع مدخنات البرومو ميتليك والأسيد سيانيدريك، ومونوكسيد الكاربون وسيانور الكالسيوم المذرى. بإمكان هذا التعيير أن يبيد مدينة

بأسرها. تهيج الأيام المشهودة يتملكني. الانقطاع عن تدوين الملحوظات إلى أن يشفى الوضع في الجزء الشمالي ـ الشرقي من قناة الغاز. لا راحة. اجتماع عام استعجالي. حتى الحجاب، لا بد أن يحضروا. ولكي لا يبقى للجرذان أدنى فرصة نجاة، ينبغي أن تضاف إلى هذا التركيب كمية كبيرة من المنتوج الجديد الذي تسلمته. العنصل الأحمر. يا لغباء هذه التسمية! إنها تفوح بنبت الحراج. وحالما يطهر المكان، يجب اطلاق فيلق من القطط، والسراعيب، والأحفاث، والبوم، وسواها في الدواميس. كل ما يضمر الحقد للجرذان. إنها الوسائل الكبرى! وليحذر كل من تحدثه نفسه بالوصول متأخراً. سوف أطرده على الفور. بل وأحسن. سوف ألحقه بالفرقة رقم 1.

الوضع خطير بالتأكيد. هذه الآثار المكتشفة فوق قناة الغاز من شأنها أن تشغلني لعدة أسابيع، ولكن، ينبغي للمرء أن يواصل التصرف كما في الأيام العادية. سأذهب للمعاينة بنفسي. المطر يتهاطل دوماً. لا بد من دخول البالوعات المخضرة، الدبقة، الحرشفية. والخبط في البراز، وانعام النظر في كل جزء من القناة الملتوية عبر كيلومترات وكيلومترات وسط تلك العتمة الهلامية المنتنة. يجب التقدم بين ذبذبات المعدن ومناوشات الحديد التي تجفف الحنجرة، وتلسع العينين، والمجازفة بالتعرض إلى داء العقد الدبيلية التي بإمكانها أن تتأكل خلاياي واحدة فواحدة. وتتلفها لرش ما يسمى بالمرض المزمن. إنه

واجبي كموظف مثالي. هكذا أكتسب الحق في جنازة وطنية إذا توفيت. ولكن، بعد تطهير المنطقة. إن أمزجتي شهيرة ومعروفة من جميع أخصائيي علم ـ سمامة ـ الحيوان. ينبغي ألا أغتمّ. لدي جيب سري. بالأمس غيرت موضعه من جديد. لو كنت فقط رأيته. رغم التفاتي مرات عديدة، لم ألاحظ شيئاً، أتراه فتر؟ عندي كذلك صندوق أحذية ألقي فيه مسرات جمة. أما الجرذان، فأعرفها. لقد كانت نزعتي مبكرة. رأس الفرطاس قريب لربي، كانت أمي تقول. وبما أنني لست أصلع، فأنا بعيد عنه. لكنني مزود بصبر الصبار. سوف أقضي عليها في النهاية. وحتى شيخ الجرذان الذي يعيش أياماً سعيدة في قبوي سيهلك. لا يمكن المزاح مع قناة غاز!

ها هي وحدة الصباح. الفرقة رقم 1 خرجت معززة ببعض التقنيين، ومزودة بكل الأمزجة التي أحضرتها بدقة. شارات مذعرة تجتاز رأسي. أشكال شاذة لا تفوتني أهميتها. إضافة إلى كونها تنفجر في مستوى الصدغين حسب حركة براونية مترادفة. ثم تضمر وتنكسر. أو تتورم وتتضاعف، بايقاع مهووس. لو أنني فقط رأيته. انخطافات بروق بنفسجية ـ زرقاء وبرتقالية. ولا أنسى وصولي المكتب قبل الوقت. حتى أن الموظفين لم ينظروا إلى ساعة الجدار. لأنهم لم يكونوا هنالك بعد. والسكرتيرة أيضاً لم تبتسم. لأنها غائبة. خطوط تمتد بألوان لا تحصى. وبلا انقطاع، تشتبك وتلتوي، مجهزة على إرادتي

في مواصلة الكفاح. زيادة على هذا النعاس الذي يهددني. أنا المؤرق! تتشوش الأفكار برأسي وتلتف مثل كبة صوف خام. لا أصمد أمام الرغبة في تدوين هذه الجملة الأخيرة على وريقة صغيرة، بايجاز، إذا اقتضى الأمر، ووضعها في جيب الانفعالات. إنها وحدة الصباح. المطر يتساقط طبعاً. لكن علي بالمحافظة على نضج حركات الغم، وحذر حركات أيام المطر! حتى لا يتملكني الحنين. العبء يثقل كاهلي. وهذا الشعور المفزع، الملقون، المذبذب. أشكال اهليلجية رطبة تبلل عيني مثل قطن مخضوض. العنصل الأحمر هو الذي سينقذني. وإلا، وقعت الكارثة، والحبس. إنها مجازفة كبيرة. ولربما اجتاح الفيضان كل شيء. لكن الجرذان تعرف السباحة. لقد سبق وعبرت محيطات واسعة. يوم ممطر ومعتم. روزنامتي لا جدوى منها. لا أريد استقبال أحد. أأنير، والنهار لم ينتصف بعد؟ وحدة الصباح. مع الضوء، تتراكم فوراً أمواج كهرومغناطيسية تنكسر على عيني، وتتصادم برأسي. حساسية باهتة، سدها، بقع وهالات، استشعاع خريفي للحديقة، رسم مائي، حركة، اختلاجات، أزهار ـ زعانف، نعاس، أو ينعس المؤرق! لقد دعك التقرير فقراتي. أستسلم للخواطر. بينما المشكلة الحقيقية لا تكمن ههنا. فأنا لم أره هذا الصباح. رغم انغمار البستان بالماء، وتدفق المجاري بآلاف الأمتار المكعبة، ورغم الطوفان. دكنة النهار كثيفة بصفة غير مألوفة. تسجيل جميع هذه

الانطباعات. الأسوأ هو كوني لا أشعر ولا حتى بالخوف. هناك بعض بؤر في داخلي مشوشة، وحسب. والحق أن نزعتي ظهرت في سن مبكرة. فورمول رائحة هذا الوقت. وفي رئتيّ الهشتين تختمر الكلمات، حتى التي يجب فسخها، محوها، شطبها، تهشيمها. انسجام الأخضر والداكن فسيرة أخرى تنتفخ في العروق وتندفع عبر الزجاج. لكن، فيم يفيدني ظهور نزعتي المبكرة؟ كانت أمي تقول.

المدينة تتحدر من أعلى الهضبة في اتجاه البحر. مائلة. لها ميناء كبير ومقبرتان، ترقد في احداهما أمي. ماتت عن التسعين. أبداً ما عرفت قبر أبي. ولا سامحته زوجته في السل الذي أصيب به، وهو لا يزال شاباً، يقاتل في بلد أجنبي. وبالانتظار. أنا المسؤول عن هذا الميناء، وعن المطامير، وخزانات الماء والمقبرتين، وبالخصوص عن قناة الغاز، هذه الآتية من بعيد، والذاهبة إلى بعيد، بفضل أنابيب موحلة شبيهة بأحشاء متعفنة. الدواميس تنتنها رائحة الميتان(*) البارد. سبق وتفقدت مرات عديدة هذه التحفة الفنية التي تتحدث عنها المدينة بأسرها دون أن يعرفها أحد سواي، وسوى أعضاء الفرقة رقم 1، المكلفة بمنع جرذان المثاعب من ثقبها. لكن كل تلك الأمزجة قد تحصر الخطر. البقاء يقظاً وعدم المغالاة في تقدير مأساوية الوضع. المطر يمتحنني. فصل رديء. أو بالأحرى مفسد.

(*) الميتان: غاز المناقع والمناجم.

وأنا الذي كدت أتخلى عن الكتابة وعن الجيب الواحد والعشرين، لن يسعني العيش بدون وريقاتي. ولا هو ممكن دون جرذان أيضاً! ليس أنا من قد يذهب للاستقرار في مقاطعة الألبرتا الكندية (ادمونتون العاصمة). إنها المنطقة ـ الوحيدة في العالم ـ التي لا تجد فيها جرذاناً، ولا حتى فئران حقل! إنني الآن، وقد هدأت، أدرك أن السعادة تتلخص من جهة، في الخربشة على قصاصات ورقية صغيرة، تتوزع على واحد وعشرين جيباً، تختلف بحسب اختلاف المادة التي تنسخ ليلاً، ومن جهة ثانية، في مكافحة الجرذان بلا هوادة. لقد أفقدني التقرير الذي قرأته منذ قليل هدوئي. ومن يدريني إذا كانت هذه القضية برمتها كذبة لفقها قائد الفرقة رقم 1. إنه لا يحبني كثيراً. وأنا بدوري، أقايضه العين بالعين. فهو لا يدين بمنصبه إلي، بل إلى أحد أبناء عمه، من ذوي المراكز العالية. وقد استحثني على قبوله، فلم يسعني سوى أن أقبله. أنا أدرك معنى الانضباط. كنت دوماً موظفاً طيعاً. أكره محاباة الأقارب، ولا أمارسها، لسبب بسيط، وهو أن أقاربي غير موجودين. لقد أحسنت أمي صنيعاً. عندما توفي والدي، قطعت علاقتها بعائلة زوجها وبعائلتها إياها. وانتقلت فور الدفن إلى مدينة أخرى. لكن ابن عمر قائد الفرقة رقم 1، رجل يحتل منصباً هاماً في تراتب مجلس البلدية. أطعت. فقد كانت رسالته في الواقع ملأى بتهديدات ملمحة، وتلميحات مهددة إلى ملحوظاتي الحميمة وأرشيفي المخبأ

في بيت أختي. لم ألح. بأية حال، ليس لي أن أحكم - لعدم اشتغالي بالسياسة - إن كانت مثل هذه الممارسات شريفة أم لاأخلاقية. من الجائز إذاً، ألا يكون هذا التقرير سوى نسيج من الأكاذيب الملفقة لارهابي. غداً، أروح للتحقق بنفسي من صحة توكيدات قائد الفرقة رقم 1. وإن كذب، فالصمت عن القضية لازم. ابن عمه رفيع المركز جداً. أنا في الواقع داهية، أعرف مع من يكون التصلب.

عندما أحال على المعاش، لن تكون ألبرتا - ادمونتون من بين المناطق التي سأزورها سائحاً، سوف أشتاق إلى الجرذان إن فعلت. تقارير علمية جداً، وجدية إلى أقصى درجة، حسمت موضوع انعدام مثل هذه الحيوانات في تلك الولاية، غربي الكندا. إنه لمن المستحسن أن ترسلني السلطات في فترة تدريب. لعل ما ينفر الجرذان هو وجود بعض الهنود الذين لم ينقرضوا بعد. ينبغي ألا ننسى أن الأوروبيين هم الذين نقلوها معهم في القرن السابع عشر. لا بد أني أسلفت كتابة هذا في موضع ما. كيما أهدأ تماماً، سوف أتصفح قاموساً لغوياً. إنه لاهتمام أخاذ جداً. أحب معرفة المعاني الدقيقة للألفاظ. والفوارق تبهرني، مهما كانت ضئيلة. هنالك يترنح الواقع، المطر يشتد. بإمكاني البقاء ساعات أستعرض الكلمات... لكني لم أستطع بعد أن أفهم لم لم يظهر هذا اليوم. مع أني خرجت من البيت في الوقت المحدد. كان ينبغي أن أراه في البستان. بهيئته العدوانية. وقرنيه المتقاطعين. يعتقد أنه

يخيفني. وأنا، الموت نفسه لا يخيفني. ورثت ذلك عن أمي. كانت من الشجاعة بحيث طلبت مني أن أصورها وهي على فراش الاحتضار. وحين رأتني لا أقوى على امساك الآلة، اغتاظت. غياب الحلزون هذا الصباح، يحيرني. ركبت باص الثامنة والنصف. إنه مستحب. فيه مقاعد شاغرة. والسائق المتكتم يشبه متآمراً. أولاد الحارة هادئون، منسحقون بهزيمة فريقهم البارحة. أشك في أن السائق أصلع. أمي تقول: رأس الفرطاس قريب لربي. معها حق بالتأكيد. غير أن هذا الأصلع لا يوحي لربي بالثقة. وأنا في ذلك أتبع حذر والدي.

ارتياح واحد يسجل هذا الصبح: كوني وصلت إلى مكتبي باكراً جداً. واجب المدير أن يمثل القدوة الحسنة. وهي ليست حالة أغلب الموظفين الذين في رتبتي. إنهم يصلون دائماً في أواخر الصبيحة. يوقعون البريد، وينصرفون للغداء. وهم يكرسون وقت شغلهم لمصاحبة أطفالهم إلى المدرسة، وللتسوق. أنا، والحق يقال، لا يمكنني مجاراتهم في ذلك. إذ إني أعزب. لا هم لدي سوى ما يخص شخصي. ولعلني أستحق منحة عزوبة، لأن الموظفين الذين يرأسون أسراً كبيرة، ليس لهم مردودية. إن واجباتهم العائلية تستغرقهم، بينما أكرس أنا حياتي بأسرها لمن يوظفوني. يحدث أن أضيع بعض الوقت في المراحيض، لكن ذلك نادر جداً. مرة أو مرتين، استغرق الأمر ثلاث دقائق. لكني لو وصفت ما أفعل في

المرحاض، لما تجرأت أبداً على قراءته. من الأفضل ألا ألح كثيراً. ورغم هذا العيب الموسمي، تراني لا أستغل سلطة البلدية. بل العكس! لا جدوى من ترك الروزنامة في هذا الوضع. إنها لا تنفع. لن أستقبل أحداً هذا اليوم. إذن، لا فائدة من تحديد منطقتي. وحدة الصباح. سيكون المساء مماثلاً. ومع الاحتلام وهملان المني، يلحق الممارسات المنعزلة، النادرة، خجل لا يطاق. إنني لا أستمتع بها سوى في الأيام التي أحسني فيها مهجوراً من الجميع، مكروهاً من الجميع، ومهاجماً من كل ناحية وصوب. عبثاً أرسم حدوداً. الجرذان تفعل ذلك ببولها. لكل عشيرة حدود، إذا ما اجتازها واحد، شنت الحرب الشاملة. معارك مشهودة، وضحايا لا معدودة، مثلها عند البشر. الاناث تشجع ذكورها وتهيجها لتصبح أشد عنفاً وفتكاً. لا فائدة من ابقاء الروزنامة كحاجز بيني وبين زوار لن يأتوا هذا اليوم. إنني أجرد ذهنياً احصائية لأيام المطر، الممارسات المنعزلة تستلزم تسجيلها على وريقة واخفاءها في الجيب السري. إنني أذكرها للمرة الأولى. أبداً ما حدثت أمي بشأنها طيلة حياتها. الأمر قد يقتلها من الأسى. إنه بكل بساطة شيء مقزز. لكنني أيام النحس، أعجز عن مقاومة رغبتي في الانحباس داخل المراحيض. كعقاب ذاتي. بل أكثر من ذلك: كبتر ذاتي. أشد ما أكره، أن أفقد برودة أعصابي. كانت أمي تقول: ولد الفار يطلع حفار. لا بد أن هذه العادة السيئة تركة خلفها لي والدي.

إني لا أستسلم إليها إلا في حالات خاصة جداً، لكن مع ذلك! مرة أو مرتان في السنة، عند حلول الكوارث، وانهيار السدود، تتركني مدبقاً، مشوشاً، مزابراً، ههنا دون شك، تكمن علة ضعف رئتي.

لم يلاحظ الموظفون شيئاً. قررت الاشتغال بملفاتي. هذا التقرير حول حملة نظافة محتملة يسقمني. لا أفهم الغاية من طلب مجلس البلدية. يجدر به التفكر في قدرة الجرذان على قلب الرقعة السياسية في بلد. لقد قرأت في الكتاب المعروف باسم: الينابيع الشرقية، ما يلي: «وفيما بعد، عندما زحف الملك سمر حرب على مصر بجيش عرمرم من العرب والآشوريين، رفض المصريون المقاتلون معاضدته... وفيما كان يشتكي، أخذته سنة من النوم فرأى أن الإله يشجعه على مجابهة جيش العرب ويرسل من ينجده. وفي الليلة تلك، اجتاحت موجة من جرذان الحقول خطوط العدو، آتية على الكنائن والأقواس، ولم تترك حتى أحزمة الأتراس. ولما أصبح الغد، وجدوا أنفسهم دون أسلحة وبلا حماية، ففروا هاربين».

كان أجدى بهم أن يمنحوني مسؤولية حملة كهذه. فالنظافة غير ممكنة دون البدء بالجرذان أولاً. وبعدئذ، يأتي دور المزابل، فتنظيف الشوارع، وتجميل الحدائق العامة، الخ. إنه حقاً عمل لا ينتهي. لكن الجوهري يكمن في القضاء على اليرابيع. لقد ثبت البرهان على أنها تستطيع قهر جيش جبار. أمي تقول: حوت ياكل حوت وقليل

الجهد يموت. لكن القوارض تزاحم الإنسان على قوته بالذات. ما من سبيل إلى المقارنة. أسمع هذر الموظفين في التلفون. وبما أني اعتزمت عدم الرد، ها هم يجدونها فرصة لافتعال أصوات آمرة، محاولين تقليدي. إنه ليس بالأمر الهين. لأن قوة الشخصية واشعاع سيطرتها يستلزمان الالمام بفن لا يرتجل في لحظة. بالانتظار، أواصل تصفح القاموس. أرحل في الألفاظ. تغمرني. وهذا أفضل من السينما. هكذا، أعرف أن ممارساتي المنعزلة في المراحيض، أيام الغضب، تسمى علمياً: استمناء. المفهوم يكاد يلطف الفعل. أو قل يمحوه. أترى ما يعني استخدام ألفاظ علمية ودقيقة! أحسني أقل خجلاً. منذ مدة طويلة أحاول معرفتها. ولو لم يكن هذا التقرير عن الخطر الذي يهدد الجزء الشمالي ـ الشرقي لقناة الغاز الزاحفة تحت المدينة، لما كنت نظرت في القاموس. ولا كنت اكتشفت الاصطلاح المستخدم لدى العلماء في التعريف بالعلة التي تعذبني. إلا إذا كانت هذه القصة بأكملها من اختلاق قائد الفرقة. بغية إخافتي، أو بغية التظاهر بأهميته، أو بكل بلاهة، كيما يخفي علي أمر ذهابه وأفراد الفرقة الآخرين لاحتساء بيرة عوض العمل. بأية حال، لا بد من ذهابي للمعاينة والتحقق بنفسي. لحسن الحظ أن الناس المحنكين بطول التجربة، من أمثالي لا زالوا يوجدون. استمناء. يا لرقة هذه الكلمة! يا لعذوبتها! لا أكاد أتمالك نفسي. عين الشمس لا يغطيها الغربال، كانت أمي تقول. ولا أنسى

أنني لم أره لدى انصرافي هذا الصباح. الأخطار تنمو والتهديدات تتلبس أشكالاً متنوعة. آخر من قد أشكو إليه المؤذن. لقد قلت له بوضوح إن اخلاصي للدولة يمنعني عن الايمان بالله. لم يأخذ بكلامي مأخذ الجد. بل اعتبره مزاحاً، وأنا صاحب نكتة. مع كل المال الذي تبرعت به لبناء الجامع! الحق أن الصومعة زائدة عن الحاجة، بما أن مضخمات الصوت تبلغ البعيد وتكفي لنشر كلمة الله في الأثير اللازوردي. دون أدنى سخرية. الأفضل شطبها. وإلا، ظن الناس أني أمزح في غير موضع. لم ألح كثيراً. كان ليعتقدني هرطقياً. بينما الهراطقة في رأيي هم من يخونون الدولة، وحسب. لذلك لم أسهب في الحديث معه: ما كان ليفهم. منتصف النهار منذ نصف ساعة. لا أشعر حتى بالجوع. المطر ينهمر دوماً، ولا حاجة إلى غربال لتغطية الشمس. كانت أمي تقول.

ظهرت ميولي مبكراً بالتأكيد. حين بلغت السنتين، سلمتني أمي إلى مربية كيما يتسنى لها العمل في بيوت الأثرياء. كانت حاملاً بأختي. ليس لي سوى واحدة، وهي تعرّج بفظاعة. ومع ذلك، فقد وجدت زوجاً، بفضل مركزي الاجتماعي، وعناد أمي، ورغبتها في ادخالها بيت الزوجية قبل أن يوافيها الأجل. كان والدي قد أظهر عجزه على تحمل أعباء الأسرة الصغيرة التي كوّنها، إذ كانت رئتاه تموتان رويداً رويداً. كان يسعل، ولكنه يلازم الهدوء. وضعوني إذاً في عهدة امرأة ريفية. ذات يوم صيفي

شديد القيظ، حبستني في حجرة، وراحت تساعد زوجها على حصاد القمح. وإذا بعشرة جرذان كبيرة هيجتها الحرارة، تهاجمني. تمكنت من الفرار قافزاً من النافذة بعد أن قتلت منها عدداً لا يستهان به. غير أن الريفية نشرت إشاعة عن تمترس أحد القوارض بدماغي. فسحبوني من عندها معاقبة لها على تقولاتها. إلى ذلك العهد، ترجع الصداقة التي أكنها لأمي. أما الوالد، فقد وقع اقصاؤه. وهكذا، نذرت للجرذان حقداً نهائياً. وتفرغت لدراسة علم سمامة الحيوان. ومنذئذ، اتضح المجرى الذي ستأخذه حياتي. كانت أمي فخورة بي. تحب أن تغدق علي الاطراء. أنت وريث طباعي. كانت تقول. لكنها أيام يتعكر مزاجها تؤاخذني على هشاشة رئتيّ. ولد الفار يطلع حفار. كنت أترك الزوبعة تمر. ثم أستدل عن خطورة نزعتي. وأذكّرها أيضاً كيف قهقرت عدداً من اليرابيع الضخمة الشرهة، المصممة على افتراسي، وأنا لما أزل في سن الثانية. أن قدراً كهذا ليطبع إنساناً. وهو ما يجعلني اليوم مسؤولاً في هذه المدينة عن عدد معين من خزانات الماء، وعدة مطامير، وميناء، وقناة غاز، وحتى عن أسس المدينة نفسها. برزت نزعتي مبكرة إذن. وسريعاً ما تملكني الشغف بالقواميس، وهوس الكتابة على قصاصات صغيرة من الورق، وفن اخفاء الجيب الواحد والعشرين، وتغيير موضعه، وهو جيب سري جداً، خاص بانفعالاتي وبأناي الحقيقية، حسب تقلبات اللحظة وهاجس الحلازن.

إنه لا يسع أياً كان أن يعرف كيف يتدبر الأمر مع عشرين جيباً وحسب، إذا ما كانت له نفس حاجياتي. دون الكلام عن الجيب السري. لقد أمضيت بعد الظهر في جرد قائمة بمختلف الأبواب التي أحتاجها لترتيب ملحوظاتي. وأدركت أنها تبلغ الثلاثمئة. مع أنني حددت نفسي. السموم فقط، تستلزم بضع خمسين جيباً. واحد، لملحوظاتي عن السموم البطيئة المخثرة. وثان يخص السموم السريعة، وثالث للسموم المدخنة. ثم جيب لكل مزيج بين سم بطيء وسم سريع. وجيب آخر لكل مزيج بين سم سريع وسم مدخن. فآخر لكل مزيج بين سمين سريعين. ثم آخر لكل مزيج بين سمين مدخنين، وهكذا دواليك إلى اللانهاية. هذا، دون الحديث عن كل جيب خاص بسلوك الموظفين المرتبين حسب اختلافهم الجنسي، وقاماتهم، وأوزانهم، وتشكلاتهم النفسية، الخ. وفي الواقع، لا تكفي حتى ثلاثمئة جيب لسد كل حاجياتي. لقد زادني هذا الحساب الصغير غماً على غم. إنني أدرك افتقاري لكل شيء. الوقت ذاته ينقصني. صرفت عدة ساعات في لعبة التحليل التركيبي هذه. العصر على وشك الانتهاء. المطر غزير. أوقدت لمبة أخرى. احتفظ بها في خزانة خصيصاً للأيام الداكنة. ينقضي كل شيء. ليس لدي حتى العدد الكافي من الجيوب كيما أنتظم علمياً. جيوبي العشرون لا يمكن الا أن تشوشني. اعترف بأني ألاقي مساء، شتى الصعوبات في ترتيب وريقاتي المبلاة،

المدعوكة، التي بالكاد تقرأ. وعلى فرض أنني ألبس عدداً أكثر من الثياب لأربع أو خمسة أو ستة جيوب، فإن ذلك لن يقدمني كثيراً. يجب التعامل بالموجود. البقاء متقشفاً. إني أتوجس الرجوع إلى البيت. أسمع الموظفين يغادرون المكتب. هم لا يأتون ليحيوني. إنه ثمن المعرفة والسلطة، يا لعذاب من يملك الاثنتين! جهلة. خائف من ملاقاته ناطراً أمام باب البيت، مبقبقاً في بركة مطر. مع الطوفان، يحتد عنف الطبيعة. إنه الخريف. غزارة نباتية. سنام شجريّ. ومع هالات الفوانيس والزجاج المغشى بالبخار، تغدو الحديقة تخييلاً فائق الروعة. وتتنامى في رأسي آلاف البغونيات شاقة خلاياي العصبية إلى حد التفجر في الهياج المذبذب والمكثف لحالة نفسية معدّنة. زعانف بشكل أزهار. شيء في رأسي. مثل جرذ يجرش باعتناء دقيق، وبهمة. أتكون المربية على حق؟

اليوم الرابع

النسخ يرهقني، والتحليل التركيبي يسحرني. حلم قطني. نعست على كتاب الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر (166 ـ 252هـ). كنت استمتع بوصفه للطريقة الماكرة التي يبني بها الجرذ متاهاته. وهو ما قد يورث الصداع. استسلمت ببلاهة للنعاس. يجب القول أنني أعرف هذا الكتاب جيداً: فأنا منذ عشرين سنة لا أني أقرأه وأعيده. إنه ذروة من ذرى الأدب العربي. أما أبو عثمان هذا، فهو رائد! لقد استقر كيان النثر معه، فيما كان الشعر جامداً في مسك الخلافة. لم يكن الأوان الآن قد حل. حلمت أن جرذاً أكل زوجي حذائي. وبما أنني لا أملك زوجاً آخر، لم أتمكن من الذهاب إلى الشغل. حلم غريب، ذو خطوط تلتوي عبر انعراجات مخي الذي أنهكه النسخ والتحليل التركيبي. عدد ضخم من القوارض الصغيرة يجوس المنطقة المحيطة بزوجي حذائي، اللذين المعهما كل ليلة، كيما يتسنى لي في الصباح اختيار أكثرهما بريقاً. جرذان تقرض الفضاء حول أحذيتي، راسمة خطوطاً متشابكة، ذات ألوان

شتى، ودوائر صفراء متشذرة، تتراكب فوق بعضها البعض، وتتقاطع، مصورة في النهاية أشكالاً اهليلجية عارضة بسبب تجريدها، وذات فوائض وانكماشات متراكمة في فضاء الحلم بتهيج نادر، يحز عيني، ويمنعني من بلوغ أحذيتي وانتشالها من حقد القوارض الثائرة والمرحة. حلم بلون البول. انتشار دوائر خالية من كل منطق. شبكة مدوخة من حقول محتشدة، كثيفة، متراكبة، متضاعفة، عبر تلجلجات وألعاب مرايا، تنبسط على شكل منحنى جيبي، مثل آثار يخلفها حلزون مدبق يتخيل أنه مركز الأرض، ويدور حول نفسه بلا انتهاء. هذه جملة لا يمكن تدوينها وترقيمها على وريقة لفرط طولها. عندما استيقظت، تذكرت أنني لم أكن قد فتقت جيبي السري. هملان مني ليلي واستمناء. أترى إلى أين تؤدي الانفعالات! أمضيت ساعات عديدة وأنا أقلب وأعيد ثيابي. بلا جدوى. أوشكت أن أتخلى عن ذلك. إنها مهمة شاقة. تقول أمي: السكران يعرف باب داره. هذا ما لا يصح دوماً. أقول ذلك عن خبرة! انني فطن جداً. لكني لم أتوصل بعد إلى العثور على هذا الجيب السري الملعون. ومع ذلك، فلنلزم الهدوء! مضطرب، المدينة لا تبلغني. بل تبلغني، لا واقعية، منمحية، كأنها مطموسة. رغم أنها لا تني تتسع عبر المشاغل والتشنجات. سوف يقتلها انتفاخها الذهني. التمركز المديني! كنت كتبت في موضع ما: إنها رشاش منبثق من المواد التي تكونها وتتكدس في ركام مدهش.

معجزة في التوازن، والحق يقال! ثم، البحر الذي يقرضها! لكن، أعترف أنها تحمل آفتها مثلما تلبس دنتيلّا زرقاء. حلم قطني. هذا الاستطراد عن المدينة هروب إلى الأمام! مضى وقت قبل أن أكتشف مخبأ جيب الانفعالات، والأصل التوراتي لكلمة استمناء، (onanisme : يونانيسم) يونان، هو اسم شخصية من التوراة، ضاجع زوجة أخيه متجنباً أن تحمل منه. فأماته الله عقاباً.

لقد نسيت الجوهري: في الميثولوجيا الإغريقية، عندما تأكل الجرذان أحذية أحد الناس، يعتبرون ذلك نذير موت. أنا لا أؤمن بهذه الخرافات. أنا عربي. وسأبقى كذلك. ما يدور في اليونان لا يهمني. حضارة البحر الأبيض المتوسط موجز شديد اللبس. ثم إنني لا أشتغل بالسياسة. نذر الشؤم العربية كثيرة بما فيه الكفاية. ولذلك، فإن هذا التعبير الشائع في اليونان يتركني بارداً تمام البرودة. إن ما يحيرني في هذا الحلم هو شكله المتاهي المضلل بالذات! هاأنذا أسقط من جديد في العصور الغابرة. يجب أن أراقب نفسي. صحيح أن النسخ ينهكني والتحليلات التركيبية تبهرني، لكن، حين يصل الأمر إلى حد رؤية كوابيس بمثل ذلك السخف فإنه يصير لا مقبولاً بالمرة. اعترف بأني بلغت الحد. هاأنذا يقظ بالفعل. مؤرق، وفخور بذلك. أبداً لا تصرد عيناي. المدينة واقع، لكنه لا يمسني. وبالمقابل، للميناء تأثيره في نفسي. أنا لم أزره بتاتاً، بل أتصوره. يكفيني العلم بوجوده. إنه قدر كامل تجمله

النوارس. رغم كرهي للسفر، لولا وجود الميناء، لرحلت للاستقرار في الريف، عند أختي. ربما كان من الأجدى أن أتخلى في المساء عن قراءة حيوان ابن بحر، وتاريخ متاهات سيلاس هاسلام. الذين في مثل سني، لا تليق بهم الكوابيس. ألا يكفي ما أصابني من هملان مني واستمناء! أهي الشيخوخة؟ لا تزال تفصلني من التقاعد خمس عشرة سنة. أتساءل إلام سيؤول مكتب إبادة الجرذان بعد تركي الخدمة. من المؤكد أنني لن أرحل إلى ألبرتا طلباً للاستجمام. هذا غير وارد! أما اليرابيع، فلتأكل ـ ما وسعها ـ أحذيتي. سوف أبتاع أحذية أخرى. وستتعب هي قبل أن أتعب. إنني مزود بصبر الصبار! وهكذا، عثرت في النهاية على الجيب السري. كنت قد خطته في باطن الكتف الأيسر من سترتي. بين القطن والقطن. إنه لجويب متزغب! هي ذي كلمتي المحببة. شطبها حتماً. وأخيراً اهتديت إلى باب منزلي. لست سكراناً. إنني أبغض المشروبات الكحولية. الناس يميعهم السكر. بل قد يزغب. (شطبت) فيجدّفون في العاطفة. مخمين! بل وأكثر: زنخين. . . اضمار مزعج يبدو متحكّماً في كل شيء. وبعد الحلم، تحل الهدنة. رحت للتحقق من وجود زوجي حذائي في موضعهما. فانتهزت الفرصة لتلميعها. ليس للنذر أي تأثير علي. أنا مغلق. مطلي بالميناء. ولا أحد يزورني. جميع العناوين التي في حوزة الإدارة مغلوطة. لا يعرف كائن كان مسكني. ولا حتى أختي. إنها ليست فضولية، وهي

بالإضافة تعرّج. منذ زمن طويل ألصقت على وجهي عجرية خشنة، يصطدم بها الجميع. الجرذان أيضاً. ولسوف تصطدم بها الحلازن يوم أشن عليها الحرب.

الحق أنني اليوم لم أجد في نفسي الشجاعة للذهاب إلى المكتب. لزمت الفراش. هذا النوع من الأمور يحدث لأول مرة. إنه أول اخلال بالنظام الإداري. انحبست في غرفتي بعد أن أقفلت الباب بدورتي مفتاح. لم أنم رغم ذلك. اليوم الذي أنام فيه حقاً، لن أستيقظ بعده أبداً. قرأت. غفوت. رتبت بطاقاتي. كتاب الحيوان. تاريخ المقامات العام. حلمت ذلك الحلم في اغفاءة وجيزة. صرفت الصبيحة أنظر إلى ألواح تتناكح فوقها الحلازن. أمرضني ذلك. رغم أني لم أره لدى عودتي مساء البارحة. كان المطر يتساقط غزيراً. جلت في البستان لاعاين الأضرار التي ألحقها المطر بالنباتات. لم ألحظ شيئاً غير مألوف. هذا المشروع يهاجسني منذ اليوم الذي أدركت فيه لعبة معدي الأرجل. لكني لم أكن أرغب في فتح كتاب مخصص لهذه الفئة الحقيرة. كنت خائفاً من اضفاء قيمة كبيرة على دويبة متحررة من رتيبة دنيا في فصيلة الرخويات. وخلصت إلى قرار. كان الأمر شنيعاً. تصوروا خنثى مكتملة، يغشى عليها وتلتذ لمدة ثلاث أو أربع ساعات. يا للقرف! كانت الألواح لا تثبت لفرط الدبق والشبق، الذكوري والأنثوي في آن معاً. إنه يمنح ويأخذ في نفس الوقت كمية من اللذة تفوق الخيال. وهو علاوة عن ذلك

رئوي. اشمئزاز تام جعلني أؤثر الفراش على المكتب. لم أكن يوماً لأفكر ـ وأنا الاخصائي في إبادة الجرذان، المشتغل بالوارفارين، والالفاكلورالوز، وسيانور الكالسيوم المذرّى ـ أنني سأقع فريسة لعدوانية حلزون تافه، مبقبق في مائه... ومهما كان السبب، فأنا لم أذهب إلى الشغل. كنت مزمعاً على زيارة الداموس الذي تعبره قناة الغاز، وتحرير بقية التقرير عن حملة نظافة محتملة، وتدوين مجموعة من المعلومات الخاصة بهذا السم الجديد الذي استلمت نموذجاً منه، واختباره على ستة أنواع من القوارض الموجودة، الخ... كان ينبغي أن أستعلم، فالموضوع عزيز علي كثيراً. معرفة العدو تسبق تحديد استراتيجية، وتهيئتها للتنفيذ بدقة. إنه ليس سوى معدّى أرجل حقير، مبقبق في بلل حياته. وأنا، بالمفارقة، أحسني محاصراً بالجفاف، أختنق، مضطهداً بدويبة تلاحقني، وتغيب أياماً عديدة كيما تفزعني، ثم تظهر من جديد، مترصدة، زاحفة خلفي على أسفلت الشارع.

ورغم ذلك، ألزم هدوئي. المدينة بحاجة إليّ. يوم من الراحة لم يسئ قط إلى بشر. وأنا لست مطالباً بتقديم تفسير إلى أي كان. إنني الآمر الناهي في مصلحتي. لرؤسائي مهام سياسية. وهم بعد، لن يجدوا الوقت للاهتمام بيوم غياب. إنهم يثقون بي. اخلاص الدولة أسطوري إلى حد أعدم اهتمامي بالله. لكن أحداً لا يعلم هذا. وليس للمؤذن أن يتقول، علماً أني تبرعت بمبلغ لا

بأس به لبناء المسجد. ويوم دفعتني الوساوس إليه، ففاتحته بالحديث عن موضوع ايماني المنعدم، ضحك، وقال إنني ظريف. لم ألح كثيراً. سمعتي طيبة إذاً، وسلطتي المهنية هامة. لذا، ألزم الهدوء. تساعدني على العيش، مطالعة القاموس، وتريحني، لحم الكلمات شحيم. كلام غنائي. فسخة. حتى أنها تفتح فضاء أوسع من الجغرافيا بأسرها. هاأنذا أستسلم لحماية لا طائل من ورائها، فيما الأخطار تتهدد، شبكات واسعة يستحيل رسمها. قد أكون قرأت هذا في مكان ما. أيكون ذلك في كتاب ابن بحر، أم في مؤلف هاسلام؟ إنهما الكتابان الوحيدان اللذان أحفظهما عن ظهر قلب. لقد ورد فيهما ذكر ما تتركه قوائم الجرذان على الرمل من آثار. إنه لفن كامل من التخطيط الرقيق! من حقي الهروب بين فينة وأخرى إلى مثل هذه الاعتبارات التافهة. إنني أفضل رشاقة الفأر على نخامة الرخويات الرئوية! مع الأمريكان الحق. ميكي ماوس(*) ليس سوى نفاج راقص على مخمل بلون الفوّة. ومن المحسوم أنهم جلبوه معهم من أوروبا. وهو قد يمثل شعارهم. تمر السيارات. لكن المدينة لا تمسني. تمر أمام البيت، إشارات مرور مثل حطاط مقزح، رافعات تتوثب في الهواء، شوارع مطلسة بالقطران، والكل يكوّن كتلة أصونها من الجرذان.

لقد أخرجت صندوق أحذيتي أيضاً. لو كانت أمي

(*) ميكي ماوس: الفأر ميكي، رسوم متحركة شهيرة لوالت ديزني.

تراني، لانتهرتني. لم تكن تحب الحنين. وهي حين طلبت أن أصوّرها يوم موتها، فذلك لكي تبقي لي ذكرى عن صرامتها، وصلابتها. كانت تعرفني من طينتها. غير أن هشاشة رئتي كانت تجعلها تخشى أن تثقل كفة الميراث الأبوي. لم تكن ترغب في أن أرث ـ علاوة عن ذلك ـ ضعف شخصيته. وإلا، فقد كانت الصور لتضجرها جداً. كانت تبغض النرجسية، وتقاومها في زوجها الذي يحمل معه دوماً صورة التقطت له وهو في العشرين، يوم بصق الدم لأول مرة. كانت صورة رومنطيقية جداً. وكان هو في الواقع وسيماً، مما جعله لا يتمالك عن عرض صورته. أما أمي، فقد كانت ـ بالمقابل ـ قبيحة القسمات. كانت بالتأكيد تغار منه. ومع ذلك، فأنا لن أغتابها. فسخ هذه الجملة عن القسمات الأمومية. إني مدين لها بكل شيء. وخاصة بنزوعي المهني! لو لم تعهد بي إلى مربية، لما هاجمتني الجرذان، ولما نذرت لها كل هذا الحقد الذي جعلني عالماً في سمامة الحيوان، موهوباً. أخرجت إذاً، صندوق الأحذية. كان مليئاً. وجدت فيه صورة التقطت لي في الجامعة، وأنا في سن العشرين. أكاد أقول إنها صورة أبي يوم بصق رئتيه، إنني أشبهه في اتساق الملامح. الحق مع أمي. لقد أخذت الكثير من المورّثات الأبوية، أعرف علم الوراثة. فالجرذان قد تكلفت بتعليمي إياه. أدركت، وأنا أنظر في الصور أن المطر لم يسقط اليوم. نهار مائع. خريف غامض هذه السنة. فصل لعين. يتركني أدمع على

صور قديمة. كل شيء مساميّ. وحدها نظرة أمي حادة، صارمة، إنها لم تضيع وقتها أبداً، في حساسيات هلامية زائفة. كانت لتسخر من هذا الخوف الجديد الذي تملكني. خوف الرخويات. إنه مصيبة بالنسبة لمكافح جرذان ذائع الصيت، شهرته اجتازت حدود بلاده منذ عهد طويل. صحيح أن الناس يكتبون إلي من كل بقاع الأرض، ولا أحد يعرف مسكني. أتلقى بريدي في المكتب. لا شيء غير رسائل زملاء مشهورين. ومع ذلك، فأنا واثق من أن حلزوناً عنيداً لا يني يلاحقني. لست قادراً على تسميمه حتى بمزيج من الأ.ن.ت.و.، مع مركب 1080، ذي السرعة الخاطفة بالنسبة للجرذان. وهو غير مؤلم أيضاً. لكن معديات الأرجل معصومة عن جميع السموم. إنها معتادة أكل النباتات السامة، هذه الكائنات الغريبة. معد رقيقة. لكن، مصفحة. وهي مولعة بست الحسن والشوكران، عدا عن كونها تجرش الفطور السامة طيلة حياتها. دون أن تسوء العاقبة! ليس ثمة سوى طريقة واحدة للتخلص منها جذرياً. وهي تربية خلد في الحديقة. سوف يروح يتقفى آثارها، ليخرجها من حفرها المخبأة جيداً، ويلتهمها. وإلا، يجب وضعها في الماء وغليها. لكن فكرة لمسها تكفي لتجعل يدي تنزّان. أمي تقول: عين الشمس لا يغطيها الغربال. أخرجت صندوق الأحذية إذاً، محاولاً نسيان هذا الحصر الجديد. إنني أعود إلى الصور باستحياء. ثم أتخلى عنها بسرعة، لأن نظرة أمي لا تطاق.

إنها ملأى بالعتاب. آنئذ، يتدافع في داخلي سيل من الأفكار. أنغمر. حركة دورانية متكررة. لا تني تعيدني إلى نقطة الانطلاق. قناة الغاز، الميناء، المضامين، خزانات الماء، المدينة، الجرذان، التحليل التركيبي، أمثال أمي، المكتب، الجيب الواحد والعشرون، هملان المني ليلاً. التقرير حول حملة النظافة. اسفنجة الخريف، الانطماسات، الحياة القاسية، الصمت، الأرشيف، المؤذن، معديات الأرجل الرئوية، باص الثامنة والنصف، التضخم المستورد، الاخلاص للدولة، الخ. إنني أكرر نفسي.

النهار يصطبغ بلون نيلي، رغم أن المساء لم يحل بعد. لا بد أن الموظفين يمرحون بكل غبطة في المكتب، فيما يرشف قائد الفرقة رقم 1 بيرته العاشرة. وأنا هنا، محاط بصوري، وألواحي التي يتناسل فوقها الحلازن، ورسومي البيانية عن متاهات الجرذان... لم أتمكن من الذهاب إلى الشغل. ليس ذلك بسبب الحلم الذي أزعجني، وإنما بسبب التفرج المقرف على معديات الأرجل. ومع ذلك، فقد علقت زوجي حذائي في السقف بواسطة حبل سميك. صرفت بضع ساعات في تمرين التحليق هذا. إنني أشيخ. رغم أني لا أقرب المشروبات الكحولية أبداً. ولا النساء. أنا لا أؤمن بالتطير اليوناني، ولكن، بما أني اتخذت من الحذر مبدأ لا أحيد عنه في حياتي اليومية، آثرت الاستمساك بنزر من الحيطة. ليس لدي سوى هذين

الزوجين اللذين أعتني بهما أيما عناية. وليس لي مال كثير أخصصه للجلد، إذ إن الورق يفلسني. الأرشيف والوريقات الصغيرة تستنزف ميزانيتي بجدية. صحيح أنني أستهلك منها الكثير. ولولا هذا الولع، لا أعرف إلام كنت أصير. الحلازن تتناسل وقوفاً. إنها غير مستعجلة، بل هي تأخذ كامل وقتها. وبما أنها خنثى، فهي تنجح في ادغام العمليتين بواحدة. لست أرغب في الإطالة حول هذا الموضوع. هلام. ومطر. إنها تهيج حين يكون الطقس ممطراً. هي هاجسي. وهو شيء خطير جداً. يكاد ينسيني قناة الغاز. تعتريني الرعشة كلما وجدت نفسي متفكراً في هذه الدويبة. هي لا فقارية، ولكنها رئوية. رخوة، ولكن محمية بقوقعة كلسية صلبة. حسيرة البصر، ولكن حادّة الشم. ومن الأكيد أنها تجهل الاحتلام وهملان المني. لديها تعويضات لا يوجد كائن حي يمكن أن يلتذ مثلها. من ثلاث إلى أربع ساعات باطراء! الفحولة البشرية إذا ما قارناها معها تبدو مزرية. لكني غير معقد من هذه الناحية. إنني أترك المآثر الجنسية للمتجاملين، مزيّتي الشعور، صائدي الغواني في كبريات الشوارع. أما عن مآثر الحلزون، فهي مقرفة. كانت أمي تجهل هذه الظاهرة. وأنا كذلك، لاستئثار الجرذان بي. لم تكن متعلمة، ولكنها تعرف القوارض. كانت تساعدني في احضار أمزجتي الشهيرة. أما بخصوص دنيا مراتب الرخويات، فلا شيء! لقد أخطأت. إنها ألد أعدائي. كنت أظنها حدسية، غير أن

المظاهر خدعتها، لقد بلغ الأمر بي حد كرهي الخروج، وانحباسي، وقعودي عن الشغل، وهو هدف حياتي الوحيد. ومع ذلك، وبالرغم عن قرفي، فلقد سوّدت ملحوظات عن هذا الجنس، ونقلتها إلى بطاقة. كان علي أيضاً صنع صندوق خشبي لاستخدامه كأرشيف خاص بمعديات الأرجل. الواقع أنني أنجزت العديد من الأشياء في هذا النهار. وهو ما يثبت أن حلمي بيرابيع تأكل أحذيتي لم يكن له أدنى تأثير علي. وجدتها فرصة لصقلهما بحنان وحماسة أكثر من المألوف. ثم انقدحت في ذهني تلك الفكرة الحرية بأن تجعل أمي حقاً فخورة بابنها ـ لو عاشت. ربطت الزوجين بحبل سميك جداً، وعلقتهما في سقف غرفة نومي. تأرجحا برهة طويلة. بينما استعدت هدوئي كما لو كان أحد يهدهدني. أطفأت النور. فإذا بالغرفة تغرق في لون نيلي. بدا لي، وكأنني أسمع بخفوت ارتداد موج المتوسط. إنها الثالثة بعد الظهر، لكن ثمة عتمة. إذن، دونت بعض خصائص الحلزون في بطاقة. ربما لم يكن من اللازم أن أفعل ذلك.

البطاقة رقم 1، الخاصة بهذا الحيوان: «إنه رخوي من فصيلة معديات الأرجل الرئوية التي هي مرتبة دنيا في جنس الرخويات. وهو بري ونباتي. مكون من رجل وقوقعة. وتصل بين هذين الجزئين منطقة تسمى أسطوانة المعطف. (فيها، نجد الفتحة التنفسية والشرج). وله رأس مكون من مجستين بصريتين ومجستين لمسيتين. وفي هذا الجزء، نجد فتحة البيض، بينما يوجد الجهاز التناسلي تحت اسطوانة

المعطف. القوقعة كلسية. إنها غامقة، ومخدّدة بخطوط فاتحة، دائرية، محدبة أو مخروطية متلولبة. وهو يتقدم بتمور وانكماش، يساعده في ذلك لسانه الخشن المبرغل...» آثرت التوقف هنا. سوف أكمل هذه البطاقة فيما بعد. الأمر يتعلق بحياتي. ليس لدي الخيار. علي أن أعرف عدوي جيداً. إنه مع ذلك لحيوان عجيب! يسير زحفاً على لسانه. كما لو أن خنثيته لا تكفيه، بل يجب أيضاً أن يتموّر، وينكمش، ويستخدم لسانه في التقدم ببطء أكثر من السلحفاة. لا أقدر أن أتذكر درجة سرعته لشدة ما هي مزرية. كنت قد سجلتها على وريقة. سوف أجدها، يجب أن أتمالك نفسي وأخفي الصور في صندوق الأحذية. أتذكر حلمي. إنه ليس كابوساً. أنا متمسك بهذه الفكرة، إذ إنَّ الجرذان أنيستي. ينبغي أن أنزل إلى القبو لأطعم قوارضي. لكني لا زلت أنتظر تلون الأزرق النيلي بالباذنجاني. وبالمناسبة، أتساءل إن كنت حقاً حلمت. لعلني، ببساطة، قرأت قصة النذر هذه في كتاب بلين(*). إن كنت قرأتها، فلا شك أنني سجلتها في مكان ما. التحقق من الأمر. أكيد أن لا شيء يمكنه التأثير علي. أنا معصوم وجاف. أترك الرشح والروال وغيره من المخاط لمعديات الأرجل. ها هي ذي الورقة التي كتبت عليها سرعة الحلزون: 0,003 كم/ في الساعة. إنه أبطأ من

(*) بلين. كاتب لاتيني قديم معروف بمؤلفه الضخم (73 جزءاً) في التاريخ الطبيعي.

السلحفاة بمئة مرة، إذ إن سرعتها تبلغ 0،300، وهو يقطع مسافة ثلاثة أمتار في الساعة. وهذا شيء غير مقبول بالمرة. أحس البغض يصاعد في. كل هذه العيوب في دويبة بهذا الحجم والغباء. كان من الواجب اختيارها هي، وليس السلحفاة، من أجلِ تصوير مفارقة زينون الايلي. هذه في الحقيقة قصة مختلفة تماماً! ابن بحر لا يأتي حتى على ذكرها في كتاب الحيوان. هو ذا رجل يستحق اعجابي. وهو اعجاب لا ينى يزداد. لقد ألغاها من الجنس الحيواني. فالمخاطيات تستوجب عناية أكبر دون ريب. وأبو عثمان الذي يطيل الحديث عنها يبرهن على ذلك قطعاً. أما ثينون، فلقد كان احتقاره للرخويات من الشدة بحيث لم يستخدمها في مفارقته. وهو ما كان من شأنه أن يخلدها. إن الحديث عنها، في الواقع، يزيد في قيمتها أكثر مما تستحق. ما كان لازماً تبذير كل هذه البطاقات، والوريقات، والحبر، من أجل هذا الحيوان الاسفنجي البطيء. هل النمل أسرع؟ إنه لينسيني جرذاني! يا للمصيبة!...

تعبت من النسخ. والتحليل التركيبي لا زال يبهرني. ولا زال المطر شحيحاً. للمرة المئة نفس المقولات تدور في ذهني. مثل زأزأة على شفرة موسى. عناصر الواقع المصوبن، أدركها بالارتداد إلى الوراء. التواءات وشم، أذى، مساحات جليدية، خيالية، خميرة سمرة داكنة محمضة. انعطافات عائمة. نعيق حروف بكماء تساقط في جمجمتي كثلج رخو. تنمل يتموج، حزوز، خطوط،

شقوق، بقايا جمل مصبوغة بالزعفران، بقايا أحلام مفتتة، ابتلاعات غثيانية، تجشؤات لعابية، تصلبات قلوية، تعقدات بنفسجية، انقاعات خمرية، تراكزات ملتفة، تراكبات متراكمة، تحززات مخروطية، لكن، جوهريا: حول رأسي تنعقد خيوط دبقة، يكوّنها ذلك المخاط الذي يستخدمه الحلزون لسد الحفر التي يعيش فيها بأناة، صيفاً وشتاء. في دماغي أيضاً، أصوات غريبة، مثل فئران تجرش. أتذكر تلميحات المربية، غير أني أعرف أنها ليست سوى تقولات كاذبة. لا جرذ محبوس في رأسي. إن وضعي يؤكد لي ذلك. كيف لا؟ وأنا الذي ينكد حياة الجرذان. يجب أن أتمالك. إن لي شرف صيانة المدينة. وهي قذرة بلا شك. لكنها غلطة الفلاحين والأسر الكبيرة. من جديد، التناسل. كانت أمي حاسمة. أرادت ما يكفل استمرارية الجنس وحسب. ولد وبنت. هكذا نذر الأب للأرق. أنا ـ حتماً وريثه في هذا الميدان، إذ أني أشبهه جسدياً. نحيف ونشيط مثله: رئتان هشتان، وأرقي عنيد. ورثت عن أمي قوة شخصيتها وشغفها بالشاي المنعنع. كانت تستهلك منه يومياً لترات عديدة، وكانت كليتاها في أتم الصحة. وأنا كذلك! لا مطر هذا اليوم. يا لحقارة الخريف. كانت تقول إنه فصل الريبة. لا صيف ولا شتاء. بين بين. أضف إلى ذلك الزوابع والأمطار الطوفانية التي تدع الأشياء مرتخية الحوائط مثلما ترتخي مفاصلي ذاتها.

لكن، علي ألا أبتعد عن موضوع مكافحة الجرذان. إنني

أتعلم دوماً أشياء جديدة. قرأت في مكان ما أن زوجاً من جرذان المثاعب أنجب خلال ثلاث سنوات 000، 500، 3 جرذ. اجتاحني يوم قرأت الاحصائية هذه، خوف جعلني أسرع باخفاء الوريقة التي سجلتها عليها في جيب الانفعالات. كنت مبلبلاً بالفعل. إلى درجة اليأس. فهمت آنئذ غروري عندما أزعم تخليص المدينة كلياً من الـ 000، 000، 5 قارض، التي تعيش في خباياها وثناياها، قبل أن أحال على المعاش. لا أريد أن أتذكر هذا الواقع المرير. إن قوانين الإنسان مبلية. وهو ما أدركه أناس «أقبر» منذ القرن السابع هجري، فألغوا المرايا. ولذلك لم ألح كثيراً يومها. بل مزقت الوريقة التي كتبت عليها الرقم، معتمداً على ذاكرتي الخرقاء لنسيانه. لكنه في أيام الريبة والتوجس، يعود إلى ذهني، ويخفق معدتي، ولد الفار يطلع حفار، تقول أمي. فكرة تناسل من هذا النوع تفجعني. تجعلني أسعل غيظاً، فتذبل رئتاي لبضع دقائق. لكني أسرع إلى شرب جروع ـ أسرّت لي أمي بطريقة احضاره ـ، فتنبعث الحياة فيّ على الفور، وتزهر رئتاي من جديد. ليس من مصلحتي إذاً، أن أفكر في تناسل اليرابيع، وإلا، فإني أجازف بتقليد أحذيتي وشنق نفسي، أو بالذهاب لتجريب العنصل الأحمر في القارض العجوز. كم تراه أنجب؟ لحسن الحظ أنني حبسته منذ عدة سنوات. لكنه وجد الوقت ـ قبل أن أقفصه ـ لتخليف أضرار مرعبة. هذا مؤكد. فأنا أعلم أن الجرذان والفئران تبلغ النضج الجنسي

في غضون أسابيع. حالما تنقطع عن الرضاعة. إذ إن فطامها المبكر لا يجاوز الثمانية عشر أو العشرين يوماً. وبعدها، تتناكح! كلمة غير علمية تماماً. شطبها. جميع سمومي وأمزجتي لن تفيد. الهرمونات الجنسية هي مستقبل هذه المعركة الحياتية. هي وحدها القادرة على اجتثاث الداء من جذوره، أي على تقليص التناسل حتى القضاء النهائي على الجنس. وآنئذ، لن يبقى لمن يريد تكوين فكرة عن اليرابيع سوى الرجوع إلى كتاب الحيوان لأبي عمرو ولوحات جيروم بوش التي أحصى فيها وجود بعض ملايين من هذه الحيوانات. لا بد أنني دونت الرقم على بطاقة في باب: «الجرذ في الرسم». ولعلني أخرّف. لكن الالبرتا موجودة حقاً. كان يجدر بالمجلس البلدي ارسالي هناك في فترة تدريب. أنا واثق من العثور على يربوع أو يربوعين وبضعة فئران. ربما استلزم ذلك بحثاً طويلاً متقناً. إنه مشروع آخر لا يمكن تحقيقه! ومصلحة ابادة الجرذان؟ من سيتولى أمرها؟ وقناة الغاز، والميناء، والمطامير، وخزانات الماء، وأسس المدينة ذاتها! إنه مثل كتابي عن محاسن الجرذان الذي لن أكتبه أبداً. إذ لا جدوى لذلك. لن يوجد ناشر جريء يقدم على اصداره. وقد تتدخل الرقابة. هاأنذا أدخل السياسة دون أن أشعر مرة أخرى. كل هذه الفقرة الأخيرة تحذف.

يتهالك الليل من جديد. فكرت أن المطر الذي انحسر في النهار سيتساقط في المساء. إنه أمر مألوف في

الخريف. ولكنه لم يسقط. أتراه ـ هو ـ يترصد في حفرة من حفر البستان! إني أفعل مثله. سوف أنتهي بمشابهته. يا للرعب الرطب! قنوات الانتظار العصبية. الليل الذي يجب اجتيازه. إني ـ رغم العمل المنتظر انجازه ـ أتوجس الآتي. وهذا الإحساس، كلما انطفأ النهار، بأني أصير دون حواف أو حواشي. عروق متآكلة باحتكاك الكلمات على تخوم الوعي. بودي لو أؤلف كتاباً عن وحدة عظماء الرجال. انفعال آخر للاحتواء. لو كانت أمي حية، لقالت إنها غنائية مبتذلة. كانت أمية، لكنها تحفظ عدداً من الأمثال الرائعة. مختصرات خاطفة للواقع المصقع والمشقق! أرغب في نوم بضع ساعات. وإلا، فستصرد عيناي. يجب التأكد ـ قبل ذلك ـ من أني لم أنس شيئاً، وأن جميع الوريقات نسخت محتوياتها على بطاقات. عدم نسيان خياطة الجيب السري في موضع آخر. مهمات الليل الصغيرة مهدئة. إن نزوعي المهني يرهقني في الحقيقة. فأنا أحمله منذ سن الثانية. إني لأحقد على أمي أحياناً، لكونها وضعتني عند مربية. لكني لا أجرؤ على كتابة ذلك. إذ باستطاعتها الاطلال بغتة من صندوق الأحذية لانتهاري. أؤكد التضاؤل. أتوق إلى كرة صوفية.

اليوم الخامس

وصلت هذا الصبح إلى المكتب متأخراً. تعمدت ذلك. كنت أريد أن يعتقد الموظفون أنني سأكرر الغياب. باغتهم دخولي في الضحى. وضبطتهم متلبسين. لا أحد كان في مركز عمله. كانت السكرتيرة غائبة. أسعدت برؤيتهم يجزعون، ويتلعثمون، ثم يهرعون كل إلى مكانه. لم أنبس بحرف. كان بعضهم شاحباً. ظنوني مت. والحق أنها المرة الأولى التي أتغيب فيها. لاحظت على الفور أن سلطتي لا تزال تامة. لم ينظر أحد إلى ساعة الجدار. رغم أنها كانت تشير إلى الحادية عشرة. كنت قررت المجيء سيراً على الأقدام، للتنزه، وتغيير الهواء. كنت بحاجة إلى ذلك، إثر نهار قضيته في الفراش أراجع وثائق مقرفة. هكذا اجتنبت صمت سائق باص الثامنة والنصف المكرب، وهذيان زميله المسئم في باص الثامنة وخمس وأربعين. لا شك أن هذا الأخير لا يزال يهيج الركاب بسبب غلاء المعيشة. إنه شيوعي أو نقابي بالتأكيد. ليس لدي الحجة. وربما كان الكتوم هو الشيوعي. هذا معقول أكثر. إنه من أولئك

الناس الذين اعتادوا الانطواء على الأسرار والدسائس. صلعه واضح. لكنه يخفي أمره بالقبعة التي تغطي رأسه. فكرت بكل ذلك على طول المسافة التي قطعتها سيراً من البيت إلى المكتب. أنا واثق من أني لا أخرّف. الفتن تبدأ دائماً باضرابات سائقي الحافلات. أعرف ذلك من مطالعتي الصحف. إني أكره التمردات. كان وصولي الفجائي إلى المكتب ناجحاً تماماً. أعترف أنني فخور بنفسي. لم تكن تلك مناورة تضليل قمت بها لتناسي الآخر: فأنا لم أره. إنه لا زال يزدريني. منذ ثلاثة أيام يتخفى، متحيناً اللحظة المناسبة ليباغتني. لكنني متأهب. فقد فكرت بهذا الاحتفال. الطقس جميل. الهواء عذب. لا بارد هو، ولا ساخن. لنقل إنه ناضج. دون شمس. أخفتهم. كلهم انتفضوا. حيوني. صمت. الصمت ذروة الاحتقار. صيني قالها. أكون سجلتها في موضع ما. إنهم جهلة. خاوون من أي ميل. منحة العدوى هي التي تجذبهم. أما أنا، فلا أقبضها. أنا المدير. دخلت مكتبي. أقفلت الباب من ورائي. بكل وقار. كنت أحسهم مندهشين، فزعين، مضطربين. جلست إلى مكتبي، ومكثت مستمتعاً بلذائذ السلطة مدة نصف ساعة. إنها ـ في الواقع ـ الشيء الوحيد الذي أحسد عليه رؤساء الدول. ذلك الاحساس بالسيطرة. أما فيما تبقى، فإني أشفق عليهم. إنهم وحيدون، مثلي. مع فارق. وهو أني لا ألقي خطباً رنانة طنانة كيما يحبني الناس، ولا أستحم وسط الجماهير. فهي تغمني.

والحماس يصدمني. وتضايقني رائحة العرق. غير أني أعترف بأن السلطة تنبت أجنحة. أعتقد أنني، بفضل حيلتي، سأقضي يوماً سعيداً. العمل يتراكم. سوف أستقبل بعض المستغيثين، بلا شك. حين هدأت لذة السلطة، أعدت روزنامتي إلى موضعها بين قاموسين. إنها السور الذي يصونني من الانظار والأنفاس الكريهة. يجب أن أجرب هذا المنتوج الجديد أيضاً. رغم اعتقادي أنه غير مجد. العنصل الأحمر. ألم يجدوا تسمية أخرى أكثر علمية، وأقل رعوية من هذه؟ لن يسعني الوقت للتفكير بالرخويات. أعباء هذا النهار كثيرة. يجب ألا أنسى تسجيل ذلك على وريقة، ووضعها على المكتب، أمام عيني. لكن اسم العنصل الأحمر هذا يزعجني. دراستي لعلم النبات تؤهلني للتأكيد أن الأمر يخص نباتاً أحادي الفلقة. أي من فصيلة الزنبقيات. ومن الجائز أن يكون عشبياً مبصلاً. التحقق من ذلك بمراجعة قاموس خاص. عندي رغبة في مراسلة المختبر لنقد تلك التسمية. يجب قبل ذلك أن أجد تسمية أخرى أقترحها عليهم. سوف أشتهر. ترى، هل يقبلون اقتراحي؟ لا زال المطر منحسراً. إني حيران. وهاأنذا أتذكر الآن نصاً مرجعياً حول تقنيات التخفي لدى الحلازن. إنني، لفرط ما اعتدت دقته منذ أيام، أتوجس الأسوأ من وراء هذا الاختفاء.

لم أضيّع رغم ذلك، وقتاً طويلاً. باشرت عملي على الفور. وضعت روزنامتي بمنتهى العناية على حافة مكتبي.

إنها إجهاز حقيقي، ينم عن فطنة! رتبت أرشيفي. هو في الواقع مرتب يومياً. لكن إبعاد الشك مستحب. إنه ما يسمى بتشكك العلماء. أعدت قراءة مسودة التقرير الذي بدأته، عن حملة النظافة. ينبغي أن أحذف منه الشعار الصادم والفعال الذي اقترحته على رؤسائي: 5,000,000 جرذ تقرض حياتكم. بعد، لم أهضم فكرة حذفه. إنه جيد. عندما حدثت عنه كبار الموظفين. حدجوني بنظرة غريبة. رغم أني لا أشبه البتة مشاغباً سياسياً. أنا أبغض الإرهابيين والثوريين. لم ألح. فهمت أن سلطات البلدية تتوجس وقوع حركة فزع. والحق أن العامة تتحرك بدافع غريزي. لم أفكر بالناحية السياسية في المسألة. يا للشعار الجميل: 5,000,000 جرذ تقرض مدينتكم. هذا أفضل. أحس أنه أكثر إثارة للخوف. أعدت مسودتي. إنها حجة أخرى على طاعتي العمياء واخلاصي للبلدية. أترك التحريض لسائقي الحافلات. إنهم أسوأ من العمال. قرأت أنهم في عدد من البلدان المتخلفة يثيرون أحياناً شغباً يشوش الاقتصاد. ربما كان من واجبي الوشاية للشرطة بمتآمري الخط 31. إني واثق من أن الكتوم يخبىء المناشير تحت قبعته. لقد بدت لي غريبة. أما الثاني، فهو يقوم بالتضليل، بلا ريب. لا يبدو خطراً بهيئته الطيبة والمتشكية. وهذا ما يسمح لشريكه بتوزيع مناشيره التحريضية التي يخفيها تحت قبعته القانونية. أنا متأكد أنهما على اتفاق. فالشبه بينهما واضح. إلا أن أحدهما ضخم الجثة وطويل،

بينما الثاني طويل ونحيف. لن أذهب للوشاية بهما. لدي شغل كثير. وربما اشتبه بأني متواطىء معهما. كلا. أنا بأية حال، غير متأهب للخوض في السياسة. أفضل مواصلة الاعتناء بالجرذان، والفئران. والعيش بمفردي. لقد سبق وكتبت أن مثل هذا السلوك دليل طرافة. وحين أبلغ الخمسين، لن يسع أياً كان أن يؤاخذني على انجاب سليل واحد. ولا واحد! أنا لست نحلة لأفرق. إنني مثل سكان «أقبر»، أجتنب المرايا والتناسل، بحذر. لأنهما يضاعفان عدد البشر. كرامتي هي حب النظافة والصمت. غريزة التجمع والتمركز في المدينة تسيء إليها بما فيه الكفاية. لم يبق إلا أن أقحم في هذا الخليط حويناتي المنوية! هل يجب شطب هذه العبارة؟ أقول بعد تفكير: لا! فهي علمية. لدي البرهان. لقد اهتممت في شبابي بالتعشير الطبيعي لدى بعض الحيوانات. وكتبت بطاقات عن الموضوع. وإذا كانت الحلازن تلتذ لمدة أربع ساعات، فإن الخنازير تقذف نصف لتر من المني المتمثل في مادة كثيفة، يقدر أنها تحوي شيئاً مثل أربع مئة مليار من الوحدات! كان الرسول على حق حين حرّم لحم الخنزير. إن حيواناً يحمل في خصيتيه هذا القدر من السم، لهو خطر أكيد. لحسن الحظ أن مواطني ليس لهم قضبان خنازير. وإلا، كانت الطامة الوطنية الكبرى! أربع مئة حوين منوي قابلة للتجدد على الفور. لكن تربية الخنازير يمكن أن تعالج ـ في الحقيقة ـ مشكلة النقص الغذائي الذي تعاني

منه البشرية الفقيرة. حدثت بذلك صديقي المؤذن. فزعم أن نكاتي ظريفة. لم ألح كثيراً. وهو علاوة عن ذلك ليس صديقي. فأنا لا صديق لي. إنني وحدي. لا أحمل سوى عبء الوحدة التي اخترت. إني أتساءل في الواقع، لم أولي كل هذا الاهتمام للمجاعات، وللمصابين بها. فأنا لست منهم، ومشاكل سوء التغذية لا تهمني. أنا رجل من العالم الثالث.

لدي أعمال أخرى. فكرة واحدة تشغلني. القضاء التام على الجرذان، وسواها من الفئران، قفازة كانت، أو غير قفازة. وأنا لا أعتمد في ذلك على العنصل الأحمر المدعو بحرياً، من فصيلة أحاديات الفلقة البصلية. ومع ذلك، سأجربه بعد قليل. تثيرني الفكرة. لدي ساعتي الدقيقة جداً. وهي شخصية، إذ أني لا أثق بساعات مركز الابادة. أعتقد أن مغناطيسية الجرذان تشوشها. أكيد أن جرذ المثاعب سيكون آخر من يموت منها! إذا كان الصباغون يثقون بهذا العنصل الأحمر. فالأمر غير ذلك عندي. لا زلت مصراً على أن الهرمونات الجنسية كفيلة وحدها بحل معضلة المدينة. لكنها تستلزم الكثير من المال. والميزانية المخصصة لنا مزرية. وبينما تصرف الملايين في بناء مساجد ذات مآذن لا جدوى منها، لا يجد مركز إبادة الجرذان اهتماماً من أحد. وهذه القناة التي يجب مراقبتها وابعاد القوارض الخبيثة الحائمة من حولها، لو أتيح لها أن تثقبها يوماً، لاختنقت المدينة بأكملها، ولصعدت الجرذان إلى السطح لسن شريعتها. وهذا أخشى ما أخشاه!

وصلت اليوم متأخراً إذن. ومتعمداً ذلك. الهواء يميل إلى الرطوبة. لكن، لا مطر. آثرت لو أمطرت. في مكتبي، تنعم الأشياء حين ينهمر. أحب مشاهدة حبيبات الماء تتمطى اهليلجية، خضراء، مزرقة، محززة مساحة الزجاج الذي تتشابك فوقه انعكاسات الـ. سبق وكتبت هذه الانطباعات عن الطقس الممطر في موضع ما. يوم عمل. ومدة البخار المخضر بـ. أعتقد أني كتبت جملة من هذا النوع أيضاً. افراط في الغنائية. بأية حال، قررت عدم خياطة جيبي السري. ممنوع أي انفعال إذن. حتى الغد. في الحقيقة، لم أعد أجد مواضع جديدة ترضيني. في غضون خمسين سنة، جلت كامل جسمي، عرفت ثغراته وفتحاته. قررت ألا يكون لي جيب سري سوى يوم من يومين. وهذا ما سيضطرني إلى تنظيم مناجاتي. وهو ليس بالأمر السيء. أحس أن تقدمي في السن يجعلني أستسلم للسهولة. نهار الأمس ـ فلتة خطيرة في حياتي العادية. لا يجب أن تتكرر. أمي لم تضعف أبداً حتى لحظة موتها. كانت تود أن تراني أسمم القوارض الستة بالعنصل الأحمر. وقد كان بوسع أبي أن يسعل ما طاب له السعال، فهي قد أقصته عن الفراش الزوجي منذ مولد أختي، تلك التي تعرّج، وتحتفظ بنسخة من أرشيفي عندها، تلافياً لفقدانه تماماً، إذا ما صودر، أو أحرق، أو سرق. كل شيء ممكن. إن العلماء الذين لهم أهميتي، مهددون في

كل زمان ومكان من طرف أعدائهم الالداء. كانت والدتي حاسمة. لقد صممت: ولد، فبنت. نقطة، انتهى. كانت تقول: الزهد حسن الصالحين ودواء الرئتين. لم يكن زوجها يعلم إن كان ما تدعو إليه حقاً أمراً باطلاً. لكنها أخافته كثيراً. فأركن إلى الهدوء. وكذلك فعل الموظفون عندي. . . لم يتحركوا طوال النهار. استقبلوا المستغيثين بأدب. غربلوهم بعناية. لم أستقبل منهم سوى اثنين: حلوانياً، يرى أن النوربورميد يسمن الجرذان عوض أن يقتلها، وأماً افترست اليرابيع ذراعي رضيعها. استمعت إليهما بكل صبر، مختبئاً وراء روزنامتي. كنت قد رتبت كل شيء. بحيث أراهما ولا يرياني. الحلواني تجاوز الحد، إذ كنت هادئاً. وعدته بالعنصل الأحمر. أما الأم المنكوبة، فقد أرادت أن أدفع لها تعويضاً. شرحت لها وجوب اتصالها بمكاتب التأمين، إذا كان لها تأمين. وهو ما أشك فيه كثيراً. إذن، وضع وصولي المباغت حداً للتسيب في المصلحة. إذ لا يمكن القول أن النظام كان فيها على ما يرام. إن معرفتي بعلم النفس الحيواني تؤهلني تماماً في ميدان السلوك البشري. كان تأثير المفاجأة كبيراً. استطعت العمل باطمئنان، وتسميم جرذ مثاعب، أو (rattus norvegicus)، وجرذاً أسود، أو (rattus rottus). يجب أو (mus musculus)، وفأراً قفازاً، أو (Zapus sp.)، وفأر غابات، أو (microtus sp.) وفأر حقل، أو (peroneycus sp.)

وفأر الاعتراف بالخاصيات الأحيدة التي للعنصل الأحمر. لقد أدهشتني سرعته الخاطفة. بعيدئذ، شرعت في مراجعة بعض البطاقات. لم أفكر أبداً بخوفي الجديد. قرأت.

أو بالأحرى، أعدت قراءة نص لأبي عثمان عمر بن بحر (166 ـ 252) يسخر فيه من قبح منظره. ذات يوم، وهو يتجول في أسواق البصرة، اقتربت منه امرأة فائقة الجمال، وطلبت منه أن يتبعها. اغتبط لذلك، واعتقد أنها وقعت في إسار حبه. فتقفى خطوها، إلى أن وصلا دكان صائغ. دخلت المرأة، وخاطبت التاجر قائلة: هذا نظيره. ثم غابت وسط الملأ. ولما احتار كاتب الحيوان، طلب من الصائغ أن يشرح له الأمر، فأجابه قائلاً: إن هذه المرأة، أتتني بنوط، أرادت أن أطبع عليه صورة جرذ. أفهمتها أنني بحاجة إلى نموذج. فذهبت، ثم رجعت معك! لقد بلغت به روح الفكاهة حد التندر بهذه القصة البائسة. أعترف أنني أفتقر إلى روح الدعابة هذه. ولا أحب السخرية مني. ربما كان للكائنات القبيحة وحدها قدرة السخرية. لأن الكائنات الجميلة جدية تمام الجدية. وهذه حالي. ليس لي أن أقدم تنازلات. وبالرغم من كل اعجابي بابن بحر، فأنا لا يمكن أن أقلد سلوكه. ينبغي القول أن القدر اصطفاني منذ نعومة أظفاري. فقد هاجمتني وأنا في سن الثانية، جرذان مثاعب نهمة. ولولا تدخل جار مربيتي، وفرار الجرذان لما عشت. لا بد أني كتبت في موضع ما أنني الذي أهربها. إنها في الحقيقة قضية لم تتضح أبداً. كانت مع ذلك تجربة بغيضة!

هكذا ظهر نزوعي المبكر، لكنني فقدت روح الدعابة. يا له من رجل، ابن بحر هذا! كنت أتمنى لو كان لي شكله القبيح وذكاؤه. إنه لرائد حقيقي. قهقر شعر الوجدان والغياب، وابتدع النثر القصصي والأسلوب العلمي. مما جعل الخلفاء يحقدون عليه. فقد كان متقدماً جداً على عصره. ومفرطاً في الدقة. لم يهتم أبداً بالسياسة، ولم يورط نفسه مع أي أمير، ولكنه زعزع قوانين الفن، وعلمي الحيوان والنبات. إنني حين أكون مرتاحاً، وغير مشغول البال بالاضطهادات المعلنة والمضمرة التي تستهدفني، أعيد قراءة نصوص أبي عثمان الأدبية. أحب سخريته اللاذعة. كان يعتقد أنه الشيطان. لكن المؤذن الجاهل لا يعرف هذا. وإلا، لأمر باحراق جميع آثار أبي الروحي. كنت بحاجة إلى نيل قسط من الراحة بعد اختبار العنصل الأحمر على مختلف أنواع القوارض التي نربيها في مختبر مصلحة إبادة جرذان المدينة. أراحتني قراءة ابن بحر.

قدمت لكل واحد من اليرابيع الستة قطعة من الشُحم الزنخ مذررة بالعنصل الأحمر (أو البحري)، ماتت فوراً. ارتعاشتان، أو ثلاث. رغوة حمراء في زاويتي الشفتين المنثنيتين. عيون تجحظ. هذا كل شيء. بضع ثوانٍ وحسب. لن أجد الوقت حتى للنظر في ساعتي لفرط السرعة التي تمت بها العملية. لأنه سحر متقن، دون أن يكون الكترونياً. وحده فأر الغابات microtus سبب لي بعض المصاعب. كررت معه العملية مرتين. لم تكن قطعة

الشحم الأولى تحمل كفاية من العنصل الأحمر. عندما أعدت التجربة، انطوى الفأر على نفسه، ومكث منكمشاً. أنا راض جداً عن تجربتي. نوع من الهياج المستحب يجتاح ذهني. إنه انتقام جديد للعدوان الذي استهدفني وأنا في الثانية من عمري، مباشرة بعد ذلك، أعدت قراءة ذلك النص المتحدث عن قبح ابن بحر. ثم قمت بجولة في المصلحة، كان الناس جديين. بل وحازمين. لاحظت رجوع السكرتيرة. لا شك أن أحداً أخطرها بحضوري المباغت. شرعت في خطاب لتهنئتي بنجاح التجربة. أوقفتها في الحال. كنت مع ذلك متأثراً باطرائها. فأنا لا أنال اعجاب سكرتيرتي في كل يوم. لقد كنت رائعاً أثناء الاختبار. لا بد أن المخبريين العاملين في القبو قد صعدوا يمتدحونني للمستكتبين. أنا فخور جداً بنفسي. إلى حد أنني تفاجأت أنظر إلى حذائي الملمع الذي لم يأت أي جرذ لقرضه. يجب القول أنني وضعته في مأمن. تلك هي الفطنة. أنا لا أؤمن بالتطير، ولكني لم أخسر شيئاً بشنق حذائي في السقف. لا مطر، رغم السماء الرمادية. هذا الطقس المتجهم بدأ يحيرني. لو أمطر، لخرج من حفرته على الأقل. مؤكد أنه سدها، بمراكمة طبقات عديدة من المخاط المجمد.

بما أنني لا أملك جيباً سرياً اليوم، فكل انفعال ممنوع. رغم وجود رغبة صغيرة لدي. ومع ذلك، فقد كتبت على وريقة ضرورة استفسار المؤذن عن موضوع يشغلني. منذ

علمت أن أصل كلمة استمناء (يونانيسم : onanisme) هو اسم رجل، (يونان حسب التوراة، رتب أموره ليضاجع زوجة أخيه دون أن تحمل منه)، وأنا راغب في معرفة ما إذا كان القرآن يذكر ممارسات هذا الرجل. وحده المؤذن يمكن أن يرشدني. وعلى العموم، فإن القرآن يحتوي مواضيع توراتية عديدة. لكن، أتراه أورد موضوع الاستمناء؟ قرأت النص القرآني مرات دون العثور على أثر هذه التغطية الماكرة. إني بحاجة للاستيضاح، لكني أتوجس ردة فعل صائن المسجد والدين. فقد يتهمني بالإكثار من التطرف، ويدبر عني، ليشغل الكتروفونه، فيصدح بالآذان كأن شيئاً لم يكن. برأيي، أن يونان استحق عقابه. لقد قتل، ولم يكن ذلك إلا حقاً. لكني أحس بشيء من التعاطف معه. فقد تجنب أن تحمل منه زوجة أخيه. في حين كان بمقدوره أن ينجب منها توأمين. لكنه حاذر من ذلك. فهو إذا، لم يشجع التناسل، لا شيء يقربه من الجرذان، والحلازن، والخنازير، ذات الخصوبة الأسطورية. إنه جدير بتقديري، لا أعني بذلك أن العقاب الإلهي كان صارماً جداً. أنا بأية حال، من الاخلاص للدولة بحيث لا يمكنني الايمان بجميع هذه الأديان. لكني لا أطيق النكاحين. الجرذان لا تؤمن بأي دين. وأنا كذلك. ربما كان أحرى بي مطالعة القرآن مرة أخرى، والتثبت بنفسي من قضية الاستمناء هذه. ثمة افراط في اتساع هذه اللفظة وشمولها الممارسات المنعزلة، غير أن

علم الاشتقاقات أشد نزوة من علم الأحياء، لست بحاجة إلى زوجة أخ. وهي - فيما يخصني - غير موجودة. سأذهب مع ذلك لأزور المؤذن، وسأحمل معي نصف كيلو من لبان جاوة، وشمعتين طويلتين. هكذا، لن يجرؤ على رفض طلبي، إذا ما سألته عن هذا الموضوع التاريخي. لكن، أين يمكن أن أخبىء كل هذه الملحوظات؟من الأفضل أن أحفظها وأحرق قصاصات الورق. بدأ المطر يتساقط. بعض قطرات جاءت تلتصق بزجاج مكتبي. تمطت طويلاً. برقشة اهليلجية. ثم لا شيء. الجفاف من جديد! كانت أمي تقول: مطر مارس (آذار) ذهب خالص. لكننا في نوفمبر (تشرين الثاني)، أوج الخريف. فصل مصوبن وأصفر، خواء من الدقة. انفعالات تسحج أعصابي، وتمور وافرة في الأسواق. لا أحبها. حلاوتها مفرطة. إنها الثروة الثانية للبلد مع الغاز. لحسن الحظ أن النخيل لا يطلع تحت الأرض. لا خوف عليه إذا من اليرابيع أو الحلازن.

البطاقة رقم 5: المخصصة لهذا الحيوان: «إن الحلزون في الميثولوجيا الكونية متصل أوثق اتصال بالقمر وبالتجدد الفصلي. ومثال ذلك أن تكسيز تيكال، إله القمر المكسيكي، يصور داخل قوقعة حلزون. وهكذا، فإن هذا الحيوان - رمز الخصب الذي لا يظهر إلا بعد المطر، متصل بدورة عمل الحقول. وهو حين يبدي قرنيه ويخفيهما، مثلما يطلع القمر ويختفي، يذكرنا بالموت والانبعاث، وبالخصوبة التي يمنحها الموتى، وبأسطورة

العود الأبدي، والجد العائد لاخصاب الأرض. رمز الحلزون مقرون عند الأزتيك بالحمل والولادة...» كنت أظن الهنود أكثر فطنة. أخطأت. فهم لو كانوا حقاً فطنين،لما تركوا الاسبان يستعمرونهم. أما طريقتهم هذه في رفع تلك الدويبة المزرية إلى حدود الأسطورة، فهي تدفعني إلى كرههم. ورغم ذلك، ينبغي أن نعترف لهم بشيء من البصيرة، فالحلزون بالنسبة إليهم، يمثل الحمل والولادة. وهو ما أراهم محقين فيه، لم يكونوا ليجهلوا أن جماع زوج من معديات الأرجل يخلف نسلاً مضاعفاً. وفيما عدا ذلك، فإن اعلاءهم إياها خطأ لا يغتفر، مثلما أخطأوا في تقييم خطر الأوروبيين: لم يقدروهم حق قدرهم. ولولا ذلك، لما تركوهم ينهبون ثرواتهم، ويهدمون حضارتهم ولغتهم. لقد خيبوا أملي بسلوكهم، لو كانت أمي حاضرة، لسألتني: وما دخلك أنت؟ ثم. من تراهم يكونون هؤلاء الأزتيك؟ وذلك ما يستوجب شرحاً، كانت حيوية، وسريعة الفهم. وبالرغم من كونها تجهل القراءة والكتابة، استطاعت أن تقصي عن فراشها والدي بذاته، وهو المتعلم الفهامة. وهذا ملمح آخر يجمعنا. لقد كان ـ والحق يقال ـ أول من حدثني عن الأزتيك والأنكا. كان يحبهم. وكذلك أنا. لكن، منذ علمت بالاجلال الذي كانوا يكرسونه للمرتبة الدنيا من الرخويات، صرت أبغضهم. هل كانوا يعلمون في ذلك العهد أن كائنات ضئيلة ومسالمة مثلها سوف تتمكن بعد قرون من اضطهاد مكافح جرذان شريف، ذي كفاءة

مهنية عالية، وشهادة سامية، يكرس لمدينته ولبلاده حياة من التضحيات والبحوث الغامضة في متاهة علم تسميم الحيوان؟، كلا بالتأكيد. ومع ذلك، فقد أخطأوا. المطر يهطل من جديد. كانت أمي تقول: مطر مارس، ذهب خالص. لكننا في نوفمبر. حسبه أن يدوم هذا المطر. فقد يتسنى لي في النهاية أن أراه وأواجهه. يجب تصفية هذا الحساب مرة واحدة وأخيرة. إنني متأهب.

قبل اغلاق المكتب بساعة، أغمي على السكرتيرة. فقد خطر ببال أحد المخبريين الظرفاء أن يضع أمام أنفها الجرذ الأسود الذي سممته هذا الصباح. كنت قد أمرت بترك الجرذان المسممة في موضعها لمدة أربع وعشرين ساعة، كيما نعاين ردود فعل الجسم على السم الجديد، الذي سآمر باستيراد كميات هامة منه. سأطلب مع ذلك، خفض الثمن، لأن مدينتنا فقيرة. إلا إذا كتبت التماساً إلى منظمة الصحة الدولية. سبق وفعلت ذلك. لكنهم بخلاء، لا يعطون شيئاً، إني أتساءل ما جدوى كل هذه المنظمات الدولية. إنها مجعولة بالأحرى، لتسمين اخصائيين مزعومين، يجيؤون لاعطائنا دروساً، وهم لا يتقنون شيئاً أكثر من قبض المعاشات الملكية وشراء الزرابي الصوفية. اسراف سياسي. حذفه. إذن، أغمي على السكرتيرة. كان الجرذ الأسود قد انتفخ إلى حد تربيع حجمه، وصار جلده الرمادي مزرقاً، مائياً، واسفنجياً. باغتّ لعبة المخبر لدى خروجي الفجائي. ولفرط ما أدهشني منظر الجرذ الأسود،

نسيت توبيخه. قرطست الجرذ في كيس من البلاستيك، وأسكنته أحد جيوبي العشرين. تملكني تهيج، واستعجلت العودة إلى البيت، حيث يمكنني تفحص الحيوان المسمم بكل هدوء. لم أعرف أبداً ما وقع للسكرتيرة بعد ذلك. لم تعد. جاء زوجها ليقول إنها تقدم استقالتها. كانت حاملاً بالتأكيد. أحسست بالرغبة في سؤاله عما لو كان ينوي مواصلة اخصاب زوجته بتلك الطريقة. لكني تمالكت زمام نفسي. كنت حين دخل عليَّ، أرتدي معطفي متأهباً للرجوع إلى بيتي، والاعتناء بجرذي الأسود rottus rollus، تركته يستعيد أنفاسه. لم أسأله عن موضوع خصوبة زوجته. كنت مستعجلاً. ثم أن ذروة الاحتقار هي الصمت، يجب التثبت من اسم الصيني الذي أبدع هذه الفكرة المزهوة واللاذعة. مؤكد أنه ليس ماو تسي تونغ!

عدت بغنيمتي. لدي الليل بطوله كيما أتفحصها، وأشرّحها، وأفهم كيف أثر العنصل الأحمر في جسمها. لقد كانت ردود الفعل على السموم الأخرى أقل عنفاً في جثث الجرذان. سواء كانت السموم بطيئة ومضادة للتخثر، مثل الوافارين، والبندور، والبرولين، والفومارين، والديغاسينون، والنوربورميد، أو سريعة مثل الالفايلورالوز، والستريكنين، وفوسفور الزنك، والارسنيك، والـ: أ.ن.ت.و. ومركب 1080، أو سولفات التاليوم، أو مدخّنة مثل البرومو ميتيليك، والأسيد سيانيدريك، ومونوكسيد الكاربون، أو سيانيدريك الكالسيوم المذرى.

عندما وصلت البستان، كان المطر الذي انهمر طويلاً يجلد الهواء عمودياً كأنما بحبال بليلة. كان هو هناك. متقاطع القرنين. اندفعت داخلاً إلى المنزل، مستشعراً حدي سيفين يثقبان ظهري. من قال إن الحلزون حسير البصر! اللعنة على الخصب! اللعنة على الأزتيك! كنت أتمنى نزول المطر لأتحقق هل أنني مطارد بالفعل أم لا. وضح الدليل. لم يبق سوى العمل. أما الآن، فإني أستعجل رؤية جرذي المصروع بالعنصل الأحمر. قد أتمكن من كتابة مقالة خطيرة عن مفعول هذا المنتوج الجديد. أحس التطلع العلمي يجتاحني. لا أرغب في اخراج صندوق الأحذية. أعتقد أنني مقدم على فتح ثغرة في علم تسميم الحيوان. سأعمل بجدية من أجل ذلك. أعرف نفسي. لدي صبر الصبار. هكذا كانت أمي تمتدحني. كانت واثقة مني. أبداً، لن أخيب أملها. سوف أترك للأجيال الصاعدة نموذجاً للعمل العلمي المتقن الانجاز. إذا سممت جرذاً، فإن حجمه يتضاعف. والأمر كذلك بالنسبة للإنسان. غير أن الجثة التي جئت بها، ربعت. لماذا؟ إذا كنت أنا أول من يعلم السر، فإنه المجد العالمي بالتأكيد. ولكن، قبل ذلك، كم كبيرة هي الجهود التي أبذلها لعبور الفراغ الملتف صرداً حول كلماتي! سبق وكتبتها. يمكنني اخلاء السبيل لانفعالاتي. إنني في بيتي. مصوناً من الزلق والدبق. يبدو الليل الذي سقط منذ ساعات فوسفورياً. بسبب حبال المطر السميكة. المدينة لا تبلغني كالعادة. لا

شك أن مواطني قد شرعوا يتساءلون عن كيفية قضاء يوم راحتهم. كرة قدم؟ كاوبوي؟ سكرة؟ دين؟ معضلة. رأسي يطن. وبالرغم من بهجتي التطلعية، لدي شعور بتمزق كيلومترات من الثقة المبرقشة في دماغي. إنه يوم آخر طويناه مثلما يطوى منديل بال.

اليوم السادس

نهار عادي. السكرتيرة استقالت فعلاً. أنا مضطر إلى طبع التقرير بنفسي. يجب تسليمه إلى السلطات. إنه دائماً نفس التقرير عن موضوع حملة النظافة. لقد عبرت فيه عن تشككي إزاء نجاح مثل هذه المبادرة التي لن تترك أي أثر بعد انتهائها. سوف تتسخ المدينة من جديد. وتتراكم المزابل في بعض شوارعها الخارجية. وتعود الجرذان إلى نشاطها المخرب. حذفت على مضض جميع الشعارات. بالرغم من فعاليتها وتأثيرها. لن أغير رأيي فيما يخص الشعار والزعيم، لا شيء يمكنه الصمود أمام هذا القانون. فالجماهير تحب أن تكون تحت الوصاية. وكذلك الجرذان. سبق وكتبتها. 5 000 000 جرذ تقرض عاصمتكم! كنت متمسكاً جداً بهذا الشعار. لعله مفرط في الواقعية. أتصور النزوح من مكاني، الفزع عاماً، المدينة مهجورة، الخ... كان رؤسائي على حق إذ أعادوني إلى الصواب. لا زلت لا أرى في الأشياء وجهها السياسي. أنا عالم ولست رجل سياسة. ركبت باص الثامنة والنصف لأصل في الوقت إلى

المكتب. تحملت من السائق، إذن، صمته العدواني. لكن الحافلة تعطلت في منتصف الطريق. مما اضطرني إلى انتظار باص الثامنة وخمس وأربعين. وهكذا تحملت ثرثرة السائق المستفزة. نهار سيء بالنسبة لي. تحمل متآمرَيْنِ بعد فاصل ربع ساعة من الوقت شيء كثير بالنسبة لرجل واحد. إضافة إلى أن المطر يتهاطل بغزارة. لدى خروجي من البيت لمحته هناك في نفس الموضع دائماً. مرصد استراتيجي حقيقي. القرنان متقاطعان. القوقعة مستقيمة. بعدائية. وتأهب للهجوم. لم يبدر مني رد فعل. توجهت بخطوتي العادية إلى الموقف. دون التفات. نهار روتيني. وهذا التقرير الذي يجب طبعه! إنني في الواقع مسرور لتخلصي من السكرتيرة. أنا لا أحب النساء المكثرات النسل. ثم أن وثيقتي ملأى بالملحوظات السرية جداً. أنا متأكد من أنها كانت لتثرثر على الفور. خاصة وهي حبلى. أنا أعيش وحدي. طرافة في مدينة ضائعة بين التصاعد السكاني وسوء الظن. مواطني ليسوا عقلاء. من الواجب أن تسيرهم شعارات كارثية. لحسن الحظ أنهم يتناسلون بسرعة أقل من الجرذان والحلازن والخنازير. كلما هبطنا أكثر في التراتب الحيواني كلما زادت أهمية التناسل. أضيع وقتي في شرح هذا الكلام لموظفيّ بلا جدوى. هل كنت أنا لأتناسل مثل الجميع. قطعاً لا. أحبت أختي أن تزوجني من صديقة. تلك التي لها ذراع أقصر من الأخرى. رفضت. ومنذ عشرين سنة وهي تحاول أن تقنعني! أتركها

تتحدث. نهار عادي. في الصبيحة نزلت إلى المختبر وأمضيت ساعتين مراقباً فأرين قفازين يركضان في متاهة معقدة من تصوري وصنع يدي بحسب ما أشاره عليَّ سيلاس هاسلام. إنه تطويق مطرد. وضعت فيها ما أمكن وضعه من الحواجز والمصاعب، وتلهيت بالنظر إلى الحيوانين يكتشفان المكان. ينظمانه. يهيكلانه. ويذكرانه بفطنة وبحس اتجاهي نادرين. كانت طريقاً مشتبكة. مجزأة. مقطعة. غير أن الحيوانين كانا يركضان عبر نسيج من الدوائر والأجزاء والانعطافات والعقد والحواجز. خاصية الجرذ الجوهرية: مسح الأرض. تقييدها على قصاصة صغيرة. غالباً ما تنسى. لهذا الحيوان حس لا يملكه الإنسان هو قيس الأرض. إنه يلاحظ، ينظم فضاءه، يرجع، يتذكر، وإذا ما أطلقته شهرين بعد ذلك في نفس الطريق فإنه لا يرتكب أدنى خطأ. وبلا كلل يشق المسار ذاهباً إلى الهدف. لذة للفكر. ربما كان علي أن أصنع متاهات أكثر تعقيداً وأكثر من هذه التجارب. تعويض استحققته. الرجوع إلى البطاقة رقم 2012.

وصلت إلى مكتبي متأخراً خمس دقائق. نظرت مجموعة من الموظفين إلى الساعة. وأحجمت الأخرى. فهمت أن الشقاق دب بينهم. لم يبدر مني رد فعل. لم تبتسم السكرتيرة. لم تعد موجودة. أي جدوى من اخراج حكاية تعطل حافلتي لهم. علاوة عن كوني أتساءل إن كان التعطيل حقاً بسبب خلل ميكانيكي. دونت ذلك طبعاً على

وريقة. إنني لا أثق البتة بذينك السائقين. إنهما متواطئان. كلمة انفجارية. شطبها. ربما كان من واجبي كموظف مستقيم دس تلميح عنهما في تقريري عن نظافة المدينة. فإثارة الشغب بعد كل حساب فيروس. تماماً مثلما برغوث الجرذ ثوي طاعون. جنرالات أمريكا الجنوبية يتحدثون كما أتحدث. إنهم في تصوري يعون ما يقولون. عندما كنت واقفاً أنتظر الباص. مد لي ولد لسانه ازدراء. لسان مبصل مبرغل. كان يحركه بطريقة فاجرة. أشحت عنه بنظري وفي سريرتي اعتقاد أكيد بأن إمارات التآمر تتضح أكثر فأكثر. إنها أوضح بكثير من الآثار المزعومة لجرذان مثاعب على أنابيب الغاز الزاحفة تحت المدينة ناقلة الميتان من الصحراء إلى بلدان نائية. إضافة إلى أن قائد الفرقة رقم 1 مشارك هو كذلك في المؤامرة. شغفه بالبيرة يبدو لي فجائياً بشكل يدعو للريبة. كان على صلة وثيقة بالمؤذن المسؤول عن الجامع الجديد الذي يقع في آخر الشارع. ذاك الذي كلفني كل مدخراتي. مع الاعتراف بأنني أفرطت في الحماس. لم يكونا يفترقان. وإذا به يشرع في افراغ عشرين بيرة في جوفه يومياً. لا بد أن في الأمر حيلة. لكنه يبقى لا يطال. علاقاته مع رجال الدين لا تهمني. بقدر ما يهمني قبل كل شيء قرابته لأحد رؤسائي. أنا موظف مثالي. أفهم محاباة الأقارب لدى بعض القادة. إنهم لفرط ما تضايقهم عائلاتهم يفضلون تسمية كل أفرادها في مناصب لا يستحقونها حتى يسعهم أن يتفرغوا للمهام الأولية خدمة

للمصلحة الوطنية. على أن هذا لا ينسيني واقع كون أعدائي يضيقون علي الخناق. إني منفعل لذلك. زيادة على أن أنفعالاتي مسموح بها اليوم. لقد خطت الجيب السري داخل قدم جوربي الأيمن. بين النيلون والنيلون. الشيء المقلق هو أنني مضطر لخلع حذائي كلما أردت أخفاء وريقاتي. لا ينبغي أن يباغتني أحد موظفي أو زوج سكرتيرتي في وضع غير لائق. قد يظنون أنني اتوضأ في المكتب ويشيعون نبأ عن وقوعي في الدين. كلا! أنا لفرط إخلاصي للدولة لا يمكنني الإخلاص للإله. ليس لدي خيار. علمتني أمي ألا أضع نفسي بين حدبتي الجمل. زوج السكرتيرة رجع دون توقع. إنه يطالب بتعويضات لأن زوجته أصيبت بيرقان. ويزعم أن ما وقع هو حادث شغل متذرعاً بأنها ذعرت من جثة الجرذ المنتفخة بعد تسميمه بالعنصل الأحمر.

وصلت مكتبي متأخراً قليلاً أثر تعطل تافه. مرت الصبيحة برمشة عين. كان عليَّ أن أؤجل مرات عديدة قراءة الجزء الأخير من البطاقة رقم 5 الخاصة بالحلزون. تحت عنوان: «دور الحلزون في الأساطير القديمة»: «... إن له في النهاية رمزاً عاماً هو اللولب. الذي يمثل إذا كان شكله يبتدي من نقطة مركزية ليتطور نحو الخارج ـ انفتاحاً وترقياً. أو إذا ما التف ـ على عكس الصورة الأولى ـ دائراً باتجاه نقطة داخلية. انغماداً وتعمقاً. وهكذا يبدو اللولوب الحلزوني كنظام ضمن التغير. وكتوازن ضمن

اللاتوازن. هذه الاستعارة التي عني بها الأزتيك يمكن تفسيرها بتنوع وتعدد حزوز النمو التي تشاهد على القوقعة الكلسية لمعديات الأرجل. ذات لون بني مرمد. يتغير كل واحد من الجنس. وهو ما يشبه قليلاً البصمات عند الإنسان. إذا كان الرومان يقرأون الغيب في أحشاء الحيوانات. فإن الأزتيك القدامى كانوا يقرأونه في تعاريق قواقع الحلازن». إن الأزتيك يخيبون أملي بالفعل. لقد كانوا يعلون من شأن هذا الحيوان إلى حد الاعتقاد أن حزوز نموه تركيب معقد وباهر. بينما رمز الأمريكان هو الفأر الفطن. وهم لذلك يسيطرون على العالم ويستحقون كل احترامي. أما الأزتيك فرمزهم هو الحلزون اللاعب. وهم لذلك وقعوا تحت السيطرة واستحقوا احتقاري. أنا المرهق بالنسخ والمبهور بالتحليل التركيبي كنت أول من سيشغف بقواقع معديات الأرجل غير أن عقلية قدماء الأزتيك كانت مخروطية الدائرة وسابقة للمنطق فيما أراني عقلانياً مقتنعاً. ليس لدي حتى الرغبة في الاطالة حول هذا الموضوع. إنه يقرفني. إنني أحقد على أبي لأنه حدثني أيضاً عن قبائل الأنكا البيروفية. كان يحبهم. هي ذي احدى نقاط ضعفه التي كان بإمكانها أن تكلفني غالياً. كما لو أن هشاشة رئتي غير كافية. كان يحب المهزومين. يا للرجل المسكين. إنه يتواجد فيهم. وإلا، فما دهاه حتى يزيف لي هؤلاء الأزتيك الذين بدأت حقاً أبغضهم. لقد كنت دائماً مع المنتصرين. يجب أن أهدأ. تدوين هذا

الانفعال على قصاصة ورق صغيرة ووضعه في الجيب الواحد والعشرين. إنني لست أي شخص حتى أسمح لنفسي بهذا الغضب الأبله. أنا أحمل عبء صحة مدينة بأسرها. ولديّ ـ بين أشياء أخرى ـ مسؤولية السهر على قناة غاز. ومطامير عديدة. وقرابة عشرة خزانات ماء. وميناء ضخم وأسس المدينة نفسها. لا يزال المطر ينسكب. تلفنت إلى المخبريين لآمر بقذف جثث الجرذان الخمسة التي سممتها بيدي. يكفي تشريح الجرذ الأسود. سودت ما لا يقل عن عشر بطاقات بخصوص الأثر الذي يخلفه العنصل الأحمر على أجسام القوارض المفسدة.

ها آنذا الآن هادئ. العصر يمر تحت مطر متواصل. لم يتسن لي أن أنظر من النافذة ولو لحظة واحدة. هادىء ودقيق. مطلي بالميناء. جاف. وغير متأكسد. لا أحد يستشفني. ملغز. عيناي مثل أمي ـ رماديتان. كانت تقول لابساً أو عارياً لا يهم. إذ المهم هو الباطن. هذا مثل آخر رائع. كانت تحفظ أمثالها مثلما تحفظ نعناعها للشاي الذي تشرب منه لترات عديدة يومياً. بالفعل. المهم هو الباطن. إنني مجهز. وجهاً وقفا. لا أتبدل. أما الحلزون. فهو رخو من الداخل وصلب من الخارج. أنا أفضل الجرذان من دون شك. ولو لم تكن مخصبة النسل إلى ذلك الحد لفضلتها على البشرية. صحيح أنني مسؤول عن ابادتها. غير أن ممارسة طويلة علمتني أن أحبها. نوع من الحنان الغامض. الناس لا يعرفون ما يريدون. فالجرذ ينقذ البشر

من الموت ابان المجاعات. كان المقريزي (743 ـ 820) قاطعاً في حديثه عن المجاعة التي أصابت القاهرة سنة 786هـ: الجزارون كانوا يبيعون لحم الجرذ مثلما يباع لحم خروف. وفي سنة 1870 بلغ ثمن الجرذ الواحد في باريس أربعة فرنكات. (راجع البطاقة رقم 154). أما أنا فأطالع. من يعرف المقريزي. إنه لرائد عربي في الاقتصاد العصري. لدي الوقت للتنقيب. لا أنام. عندما يكون على المرء أن يحمل مسؤولية مدينة كهذه. لا شيء عدا الأرق يهم. لا تشتت. لا انحراف. إنني أبغض ذلك. مفتاح النجاح: أهداف واضحة ومواعيد دقيقة لتحقيقها. لقد خصصت منذ سنوات عدة بطاقات للمجاعة التي حلت بمصر القرن الثامن للهجرة لعهد الأيوبيين. وذلك من خلال كتاب المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة. ولقد أحببت تحليلاته الاقتصادية. وإن كنت أتساءل اليوم عما إذا لم يكن شيوعياً. لذلك لم أتحدث عنه إلى الآن. حذف كل ما كتبت عن تقي الدين أحمد المقريزي. قد يكون من الواجب أن أشرع في هذا الكتاب عن محاسن الجرذ وذكائه. وبالانتظار. ها أنذا هادىء. المهم هو الباطن. كانت أمي محقة. لقد كانت محقة على الدوام. كانت تقول أن تكون لابساً أو عارياً. لا يهم. المهم هو الباطن. كانت مصيبة. أمثالها معين أستقي من ثرائه الذي لا ينضب. وقد دونتها جميعاً على بطاقات. قرابة المئة. البقاء حذراً. احضار خطة دقيقة.

مضجرة تكتكة ساعتي. لقد وضعتها في جيب صداري. هي ذي تملؤه بأجداء من الوقت إلى حد أثقله بحيث أنوء بحمله. لقد نسيت لفرط انشغالي أن أضع الروزنامة على حافة مكتبي مضغوطة بين قاموسين. وما بين الساعة والروزنامة أجدني محاصراً بين وقتين. وقت راكض على ميناء مقسم إلى ساعات ودقائق ووقت راكض على كرتون مجزأ إلى شهور وأيام. ويحيرني مزلاج باب مكتبي. يبدو كأنما تغير شكله. أبداً ما لاحظت أنه لولبي. أنهض للنظر إليه عن كثب. ليس له نفس الشكل حين يرى من بعيد. إنه أقل بيضوية وأكثر تراكزاً. ليس غريباً. فهو مثل ساق أختي. هنالك دائماً فرق بين أن تنظر إلى شيء مواجه أو إلى قفاه. ما من مبرر لهذا الفزع الذي تملكني. لكن الفجوة جلية. شقة ـ الجدار ـ الأبيض. تكتكة ـ الوقت. الروزنامة ـ الجهاز. ثم العصر المتلاشي. القيام بحركات لا مجدية. مداورة الكلمات بكل الحذر المستلزم قبل كتابتها على قصاصات ورقي الصغيرة. هزال فلك البروج. مناجاة كارثية. بي رغبة في الرجوع إلى بيتي واخراج صندوق الأحذية. أعصابي تتآكلها كثافة الجو. موجة القلق تتمطى وتمتد كقطرة زئبق تتفارق اهليلجياً بقوتها الداخلية. اخلاء السبيل للانفعالات قبل استقبال حلواني آخر غاضب أو أم منكوبة. تحصرني تراكزية المزلاج كقوقعة حلزون. كلمات غزيرة يجب فسخها حتى قبل أن تكتب. آثار مطنة على تخوم الصرير. ومن جديد تبلغني الأصوات بليلة

وكأنها مقلوبة. وتفرغ الساعة ربعاً فربعاً. وهذا الشغل الذي لا يزال بانتظاري. خطوط. فوهات براكين. شطوب. قراءة معدية على الطريقة الأزتيكية. الكلمات تلولب الورق. تطور أو انغماد على حسب دوران اللولب ابتداء من نقطة خارجية أو داخلية. نظام. فوضى. إذا كان الأزتيك محقين فإن تقولات المربية حقيقية. وماذا لو كان رأسي يحبس جرذاً كبيراً. الثبات. انتظار الحدث. لدي تقرير يجب طبعه. لكن ميوعة برتقالية تشطرني شطرين. شطر رخو وشطر صلب. هل بدأت أشبهها. داخل رأسي. تحت خميرة الكلمات المكسرة. المفسخة. المشطبة. المنحلة مفاصلها. المشتبهة معانيها. تتخمر ألوان مبفسجة. وانطباعات مضمرة. حصر حلزوني. أقع في الشرك. أفقد المحور. أفقد المركز. الباطن يرخ. الصديد يطغى والحيرة تتكثف. الرأس كبة صوف موجعة والرئتان ورق أصفر. قناطر من الماء تتساقط. والإضاءة ليست مجعولة للحد من هذا الإحساس بتعددية منابع النور ومراكزه المنقسم كلاها إلى آلاف الأجزاء المنصهرة والدائرة في الهواء المتعفن بالرطوبة. أقراص مصغرة تتصادم وتتطاير في الدماغ عبر مواشير وانعراجات. مجرجرة معها كلمات محفورة بالأزميل إلى منطقة هذه السطور. أريد أن أحتفظ بها. أريد أن أكون حقيقياً ولو مرة واحدة.

مكنتني الهدأة المستتبعة من استجماع ذهني. بودي لو يتوقف هذا المطر. حتى أستطيع التركيز من جديد.

والانتهاء من المسائل العادية. واستقبال شخص أو شخصين قبل اغلاق المكتب. خابرني رئيسي منذ برهة. هو قلق من صمتي على التقرير. لم أرد اضجاره بالحديث عن شكوكي عن صحتي. أجبته بأن موظفاً متفانياً ومثالياً لا يمكن أن يكون إلا بخير. بدا وكأنه ارتاح لذلك. تكلم عن رادءة الطقس وأضاف: إن الحلازن تمرح بكل سرور. أوشكت أن أقول له إنني لا أستظرف مزحته. أخبرته بحصولنا على المنتوج الجديد. بدأ مطمئناً على قضية إبادة الجرذان. سكت لبضع ثوانٍ. اغتنمت الفرصة لأحييه باحترام وأغلق الخط. كانت نوبتي وجيزة في الحقيقة. لدي صبر الصبار. أعرف كيف أنتظر مرور الزوبعة. وقد أعانتني المخابرة على تجاوز لحظة الضيق تلك. لم يبق منه شيء. قمت بجولة مباغتة في مختلف الأقسام. كنت بحاجة للإحساس بسلطتي. استيقظ حاجب ناعس على كرسيه مذعوراً. انتصب جامداً حين استشعر مروري. استعملت معه عبارة جداً أبوية. أوشك أن يغمى عليه فرحاً. ورجعت إلى مكتبي وقد تغيرت تماماً. كنت من جديد موظفاً متمكناً واخصائياً قديراً. إنه نهار عادي على العموم. رغم ذلك الظرف الطارىء. لقد تضايقت بسبب تكتكة ساعتي. لذلك حطمتها بقدم حذائي. تطايرت في عشر قطع صغيرة. لن أعود لحمل ساعة أبداً. بعدئذ، رحت لألقي ببقاياها في دورة المياه. أحسني ارتحت. لقد كنت أحب هذه الآلة دوماً. غير أنني فهمت منذ برهة أنها ليست سوى ورثة

مسمومة خلفها لي المرحوم والدي فيما خلف لي من عاهات عديدة أذكر منها هملان المني ليلاً. والاستمناء وهشاشة الرئتين. وتناسق الملامح. وهذه الساعة الذهبية اللعينة التي كادت تجنني. الآن وقد تجاوزت النوبة قررت أن أراجع بطاقة عن سفاد الحلازن. إنه تحد واختبار.

بطاقة رقم 7.: «السفاد عند الحلزون متبادل. إن هذا الحيوان المزود بجهاز تناسلي خنثوي يثير شريكه بغرز ابرته في جلده. ويثار من ناحيته بنفس الطريقة. وما أن تبلغ الإثارة أقصاها حتى تنكسر الابرة وتخرج من الفتحة التناسلية بمساعدة مخاط الغدد المتعدد الخيوط. وعندها ينتصب الذكر ويولج في فرج الحلزون الثاني الذي يقوم بنفس العملية. إن هذا السفاد يحدث وقوفاً ويمكنه الاستمرار ساعات عديدة مما يسمح للحلزونين أن يلتذا بحدة مضاعفة» قرأت هذه البطاقة وأعدتها مراراً مستعيناً بلوحات موضحة جداً. شعرت بقرف حاد. غير أنني بقيت جافاً ومعقماً. لقد ربحت رهاني وايجابية الاختبار. وقد حتمت هذه القراءة التحرك بسرعة. أنا، عاقد العزم على الانتهاء من هذه القضية. يجب أن يمر خوفي. فالمسألة تتعلق بنظافة المدينة وأمنها. إذ أنني لا أنسى أبداً خطر جرذان المثاعب الذي يحوق بقناة الغاز. إنه مدفون تحت الأرض لأسباب استراتيجية بالتأكيد. وليس لي شرحها أو تحليلها. وأنا بأية حال غير مؤهل لذلك. وهو يجلب داخل مصارينه الضخمة، وعبر أروقة مسمنتة ومهيأة لذلك

الغرض، الميتان النتن ويوزعه على كامل المدينة. ثم يمضي تحت البحر إلى مدائن بعيدة. جهد أبي المقصى في زيارتها. متذرعاً بمداواة رئتيه كان يمكث طويلاً في الموانىء المريبة. غير أن رسالة من أمي ـ أكتبها تحت املائها ـ كانت كافية لارجاعه إلى الصواب على الفور. كانت هي تقول مطرية علي إنك سليلي أنا، سترى. عندما تكبر سوف أشتري لك رئتين من البلاستيك. عهدئذ. كانت تلك مادة نادرة وثمينة. وأنا لم أفهم اللغز الا حين كبرت. لم تكن ترغب في أن تكون رئتاي مثل رئتي زوجها الشقي.

لم أعد راغباً في مواصلة هذا الحديث عن نهاري. الذي ينقضي الآن ويفرغ مثل شريط جيلاتيني ومحبب في نفس الوقت. محززاً بوقائع وحوادث. ممزقاً في بعض مواضعه. ملصقاً من جديد مجدور، بألف شارة. وسواها من صدوع فاخرة. لقد دونت من الملحوظات ما يكفي لإعادة تركيبها، وتخفيفها، وتقليصها وتقديمها حسب ما يلائمني، أو حسب حاجيات المصلحة التي أدير، لمنفعة المجتمع المستقر في قناعاته وأمجاده الباطلة. جاحداً ومتكبراً. إذن يسعني أن أعيدها بكل راحة بال في بيتي. دون ثغرات أو نسيان. إنني رغم الخريف. ورغم الاحتلام والانفعالات، أؤدي دوري كما ينبغي. ولعل من الواجب أن يعتز بي رؤسائي. فأنا أهتم حتى لسائقي الحافلات. يقظ أنا، وغيور على حقوق الدولة ومبادراتها. لو كان جميع الموظفين مثلي، لكانت المدينة في هذه الساعة

تبرق، عوض التخبط في أوحالها. وقذاراتها وبالوعاتها. لقد كتبت في تقريري أن تورمها الدسم وفوضى سكانها هما اللذان سيقضيان عليها. لكن، اضطررت إلى حذف ما كتبت كيما أرضي رؤسائي. ذاكرة مواطني قصيرة. وحساسيتهم سريعة. ومشيتهم هائجة. للفسخ. في هذه اللحظة بالذات. أحس ـ فيما يتهالك الليل ـ أن الواقع اسفنجي أكثر من أي وقت مضى. استجمعت رغم ذلك ذهني. رتبت بطاقاتي. أتممت ملفاتي. أعطيت أوامر. راقبت سير المصلحة كما ينبغي. المطر يسوط زجاج نافذة مكتبي حسب شباك معقدة تذكرني بالشباك التي ترسمها الجرذان الراكضة في متاهة ـ مرآة الكلمات تغلي من جديد في رأسي. أتركها تفعل. إنها تنتهي دائماً بالتعفن وسط محلولاتي المائية. أنفاسي جداً صافية. إذ إنني أديت مهامي اليومية خير أداء. وذلك عبر الحواجز والكمائن. إنني أتدبر شؤوني مثل الجرذان التي أبيد. وأنا في حقيقة الأمر أحبها. وبما أنني عقدت العزم، فها أنذا أعود إلى اعتبارات أكثر صفاء. لم أعد حتى حاقداً على الأزتيك. لقد كانوا مخدوعين. وأنا أيضاً. المهم هو معرفة ذلك. إنه لصفاء قائم مثل حاجز. هذه كلمة مشحونة جداً بالتاريخ والتخريب. للمحو. بالأحرى مثل سور. وإنه لا خلاص في شكل عقيدة. كانت أمي واثقة من نجاحي لأنها كانت تعرف أنني أملك جميع خصالها. كانت محقة إذ وثقت بي.

ولأن المطر لا يزال يتساقط بفيض. لا بد أن الآخر يتخبط الآن في مائه. طوبى له. فنحن الآن نشارف نهاية السراب. لست أتوجس الرجوع إلى بيتي. بل إنني أحس نوعاً من الابتهاج. ومما يزيدني انسياباً هذا الثوران الطبيعي. أحسني مختوماً بالعملقة. مجتاحاً بالفيض. ويرن الجرس. هي ساعة الاغلاق. لم تعد لي ساعة لأتحقق من عدم تقديم الموظفين ساعة الحائط. ها هم ينصرفون. كل شيء مرتب. ملفاتي مهيأة ومدرجة بعناية. تقريري عن حملة النظافة الآتية أكملته. أرشيفي الثاني في مأمن عند أختي التي لا تزال تسكن الريف وتعرج دائماً. الأشياء تفقه فظاظتها النهارية. الزوايا تغيب. إنه الخريف. يا للفصل الغريب. كانت أمي تقول لا هو أصفر ولا هو برتقالي. ليس نباتياً بالإضافة. اضطراب زعانف ـ زهر وسط الطوفان المنصب على البستان. ضجة المدينة تصلني كأنها مرخاة. لا أصفر ولا برتقالي. بين شكلين. بين لونين. لدونة البغونية المتموجة فوق سويقاتها البليلة. لست مستعجلاً. ملحوظاتي السرية في مأمن داخل قدم جوربي الأيمن. لو وقع لي حادث لن يكتشف أحد هذا المخبأ المستحيل. سوف آخذ أسراري وانفعالاتي معي. إنني أستحق ذلك. لقد كنت أبداً موظفاً متفانياً. لا أترك شيئاً للصدفة.

ظللت قابعاً في العتمة طويلاً. أذعرتني النسوة المياومات. يصلن في الساعة السابعة بالضبط ساعة بعد

اغلاق المكاتب. أسرعت بالإنارة حتى لا يفاجئنني. ارتديت معطفي وخرجت.

في الخارج مطر. القطرات الكبيرة تحدر الاسفلت. ضباب خفيف يسبح فوق المدينة. استشعاع.مزرق. عرفت على الفور أنه هناك. بهدوء شديد اقتربت منه. واجهني. وفي الحين محقته بنعل حذائي الأيسر المحفوظ من كوارث الجرذان ونذور الكهان. وإذا بفقاعة ماء تتقزح على سطح الأرض الرطبة. في الموقع الذي قتلته فيه. توقف عابر سبيل لينظر إلي. قلت منذ ستة أيام بالضبط وهو يلاحقني. لا جدوى من انذار الخطر. أنا ذاهب لأسلم نفسي.

المحتويات

ولد رشيد بوجدرة سنة 1941 في عين البيضاء بالجزائر. درّس الفلسفة حتى سنة 1972. وقد تفرغ منذ هذا التاريخ للأدب والسينما.

صدر له العديد من الروايات، أهمها: «الإنكار» (1969)، «الإراثة» (1975)، «الحلزون العنيد» (1977)، «فوضى الأشياء» (1991)، «تيميمون» (1994) ومجموعتان شعريتان: «من أجل إغلاق نوافذ الحلم» (1965) و«لقاح» (1984).

و قد كتب سيناريو نحو عشرة أفلام سينمائية منها: «وقائع سنوات الجمر» الحاصل على جائزة السعفة الذهبية بمهرجان كان السينمائي سنة 1975.

أعمال بوجدرة مترجمة إلى حوالي 15 لغة. و هو يكتب بالعربية منذ 1982.

كتب أخرى للمؤلف

من أجل إغلاق نوافذ الحلم، 1981، (شعر).
ألف وعام من الحنين، 1981، (رواية).
الإنكار، 1984، (رواية).
الرَّعن، 1984، (رواية).
يوميات فلسطينية، (يوميات).
طبوغرافية مثالية لاعتداء موصوف، 1983، (رواية).
الإراثة، 1983، (رواية).
ضربة جزاء، 1985، (رواية).
التفكك، (رواية).
المرث، 1984، (رواية).
لقاح، 1983، (شعر).
يوميات امرأة آرق، 1985، (رواية).
معركة الزقاق، 1986، (رواية).
فوضى الأشياء، 1990، (رواية).
حقد الـ FIS، (مراسلات).
تيميمون، 1994، (رواية).
رسائل من الجزائر (بيان).
الشرق في الفن التشكيلي، (دراسة).
واقعة اغتيال ياماها بعد فوز الـ CRB، (رواية).
الانبهار، (رواية).

■ صدرت هذه الكتب جميعها في طبعة جديدة عن المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار **(ANEP)** عام 2003.

رشيد بوجدرة

موظف في الخمسين من العمر يكلف في مدينة كبيرة بشمال إفريقيا بإبادة خمسة ملايين فأر. لهذه المهمة الهاجس تضاف عادة تسجيل ملاحظات خاصة و سرية على أوراق مبعثرة. غير أن حلزونا خياليا و مسيطرا يفرض نفسه في حياته، كأنه يريد أن يحوله عن هوايتيه: إبادة الفئران و الكتابة.

حكاية سياسية للتخلف، تصف بطريقة ساخرة أوهام بيروقراطي تجاوزته مشاكل مدينة لا حلول لها.

©Editions ANEP
N° ISBN 9961-75603-7
N° Dépôt légal: 819-2002